الفصل الثانى

منهج ابن حزم ومرجعيته التاريخية

المبحث الأول : شروط المؤرخ عند ابن حزم

المبحث الثانى :ابن حزم وفلسفة التاريخ

المبحث الثالث : منهج ابن حزم وأسلوبه فى الكتابة التاريخية :

المبحث الرابع : المرجعية التاريخية لابن حزم الظاهرى

obeikan.com

obeikan.com

المبحث الأول
شروط المؤرخ عند ابن حزم

وضع منظرو الفكر التاريخى عدة شروط أو صفات يجب توافرها فى المؤرخ أو الشخص الذى يعالج التاريخ ومنها :

أولا : الصدق ، وأحيانا يعبر عنه بالعدالة ، وقد قرن السخاوى العدالة بالضبط التام الناشىء عن مزيد الإتقان (1).

ثانيا : الضبط وقوة الحافظة ، وهو ما أشار إليه السبكى بقوله : " وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى " (2) ، وهذا الأمر له من الخطورة ما له ، ومن ثم رأينا بعض المؤرخين كالذهبى وابن حجر وغيرهما ينتقدون ابن حبان لأنه كان يتصرف فى الألفاظ فيعبر بنفسه عن عبارات الأئمة السابقين (3).

ثالثا : أن لا يكون الخبر المنقول أو الرواية قد أخذها المؤرخ أو كاتب التاريخ حال المذاكرة ، وكتبها بعد ذلك (4).

رابعا : أن يسمى المؤرخ الشخص الذى ينقل عنه (5).

خامسا : وينبغى للمؤرخ أن يكون صاحب إحساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال ، بالقدر الذى يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازع الآخرين (6) ، وهو ما عبر عنه السبكى بقوله : " أن يكون حسن التصور حتى يتصور حال ترجمته " (7).

---

1 قارن : السبكى : قاعدة فى الجرح والتعديل وقاعدة فى المؤرخين ، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة ، القاهرة ، ط2 ، 1978م ، ص71 ; السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ، ص63.

2 أنظر : قاعدة فى الجرح والتعديل وقاعدة فى المؤرخين ، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة ، القاهرة ، ط2 ، 1978م ، ص71.

3 الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، 3/507.

4 السبكى : مصدر سابق ، ص73.

5 نفسه ، ص73.

6 كاسرر أرنست : فى المعرفة التاريخية ، ترجمة أحمد حمدى محمود ، القاهرة ، د.ت ، ص33.

7 أنظر : قاعدة فى الجرح والتعديل ، ص75.

سادسا : ويلزم للمؤرخ أن تتوفر له ملكة النقد ، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء (1).

سابعا : أن يكون أميناً مخلصاً، فلا يكذب ، ولا ينتحل ، ولا ينافق أصحاب الجاه والسلطان ، ولا يخفى الوقائع والحقائق التى قد لا يعرفها غيره فى بعض الأحيان (2).

ثامنا : من الضرورى للمؤرخ أن يكون ذا عقل واع مرتب منظم ، لكى يستطيع أن يميز بجلاء بين الحوادث ، وينسق أنواع الحقائق ، ويفيد بها فى الوضع المناسب (3) ، وهو ما عبر عنه السخاوى بالتحرى في تناوله للوقائع (4).

تاسعا : الموضوعية التامة ، وعدم التحيز (5) ، وهو ما عبر عنه السبكى بقوله : " أن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب فى مدح من يحبه ، والتقصير فى غيره ، بل إما أن يكون مجرداً عن الهوى وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك طريق الإنصاف " (6). وفى موضع آخر يعبر السبكى عن ذلك بقوله : " فلابد أن يكون المؤرخ عالما عادلا عارفا بحال من يترجمه ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه " (7).

ويتضح مما سبق أن الصدق والضبط وقوة الذاكرة والذكاء والدقة, وقوة الملاحظة وحسْن الإستدلال وجودة الإستنباط , وربْط الأحداث بعضها ببعض, كل ذلك

---

1 عاصم الدسوقى : البحث فى التاريخ ، مكتبة القدسى ، ص207-209.

2 شوقى الجمل : علم التاريخ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 2010م ، ص98،99.

3 نفسه ، ص101.

4 أنظر : الإعلان بالتوبيخ ، ص63.

5 شوقى الجمل : علم التاريخ ، ص104 ; وانظر : عاصم الدسوقى : البحث فى التاريخ ، ص204.

6 أنظر : قاعدة فى الجرح والتعديل ، ص75.

7 أنظر : معيد النعم ومبيد النقم ، ص74.

صفات وشروط تجعل من يكتب التاريخ راويةً أميناً, ومحقّقا نزيها ، وهو ما ينطبق على ابن حزم كما سيتضح من خلال العرض التالى :

أولا : بخصوص الصدق وعدم الكذب فقد وصفه من ترجموا له بالصدق (1). بل إنه ذاته جبل على الصدق وكراهية الكذب ، ومن ثم رأيناه يقول : " وما أحببت كذاباً قط، وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيماً، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل، وآخذ ما ظهر من أخلاقه، حاشى من أعلمه يكذب فهو عندي ماح لكل محاسنه، ومعف على جميع خصاله، ومذهب كل ما فيه ... " (2).

ولأن هذه الصفة من أخطر الصفات لدى من يكتب أخبار الناس ، ومن ثم رأيناه يتزيد فى جمع أقوال الحكماء ، وما ورد فى السنة وفى القرآن من تنفير الناس من الكذب ، وحثهم على الصدق فيقول : " وقال بعض الحكماء: آخ من شئت واجتنب ثلاثة: الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك والملول فشأنه أوثق ما تكون به لطول الصحب وتأكدها يخذلك والكذاب فإنه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر. وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسن العهد من الإيمان. وعنه عليه السلام: لا يؤمن الرجل بالإيمان كله حتى يدع الكذب في المزاح .... والله عز وجل يقول: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل هل يكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم. قيل: فهل يكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم. قيل: فهل يكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا..... وروى أنه أتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله، إني أستتر بثلاث الخمر والزنا والكذب. فمرني أيها أترك. قال: اترك الكذب فذهب منه. ثم أراد

(1) الحميدي : جذوة المقتبس ،2/ 489- 491 ; وانظر : ابن بسام الذخيرة ، مجلد 1قسم 1ص167; الفتح بن خاقان : مطمع الأنفسي ، تحقيق محمد علي شوابكه ، دار عمار مؤسسة الرسالة ،ط1 ،1403هـ/1983م، ص280،279 ; الذهبي : سير الأعلام ،18/ 201،187،184; السيوطي ، طبقات الحفاظ ، صً436 ; ابن العماد ، شذرات الذهب ، 3/ 299.

(2)أنظر : طوق الحمامة ، دار الجيل ، ص80،81.

الزنا ففكر فقال: آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني: أزنيت؟ فإن قلت. نعم، حدني، وإن قلت: لا. نقضت العهد، فتركه. ثم كذلك في الخمر .فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني تركت الجميع. فالكذب أصل كل فاحشة، وجامع كل سوء، وجالب لمقت الله عز وجل..... وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل، والله الحق وهو يحب الحق وبالحق قامت السموات والأرض. وما رأيت أخزى من كذاب، وما هلكت الدول ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب " [1].

والمطالع لمصنفات ابن حزم يجد أن الصدق هو أبرز سمة لهذه المصنفات فابن حزم كتبها دفاعا عن مبادئه التى يؤمن بها ، ولم يكتب تملقا لأحد أو بغية كسب مادى أو دنيوى ، بل إن كتبه لم يرض عنها معظم أهل الأندلس ، وتكالبوا عليها وأحرقوها لمخالفتها لمعارفهم ومناهجهم . بل إن واقعة حرق كتبه كانت بسبب صدقه وصدعه بالحق إلى جانب أسباب أخرى ليس هذا مجال تقصيها [2].

ثانيا : وبخصوص ملكة النقد فابن حزم رائد من رواد نقد الخبر التاريخى ، ومضاربة الروايات بعضها ببعض للخروج بالقول الفصل بشان الروايات المتعددة أو المتعارضة . بل إنه كان اسبق من ابن خلدون فى ذلك . حيث نجح فى تأسيس ما عرف لاحقا بفلسفة التاريخ ، وسبق بها ابن خلدون بعدة قرون ، وهو ما سنفصله بالفصل الخامس والأخير من هذه الدراسة .

1 أنظر : طوق الحمامة ، ص81.

2 عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص 123، 124.

والمطالع لكتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل يقف على حقيقة النقد عند ابن حزم بما لا مزيد عليه [1].

والمتتبع لمصنفات ابن حزم تجده حريصا على إثبات قدرته الفذه فى تتبع الأخبار وإثبات رواتها الثقات ، وبعده عن كل نقل فاسد ، ومن ثم فهو القائل : " والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك، والاقتصار على ما رأيت أوضح عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين،فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتحلى بحلى مستعار، والله المستغفر والمستعان لا رب غيره. " [2].

ثالثاً : وبخصوص الاعتماد على العقل فهذا أمر اشتهر به ابن حزم فرغم ظاهريته ووقوفه على النصوص إلا أنه كان معملا لعقله فى جل طروحاته ومصنفاته [3]، ومن ثم فهو القائل : " حد العقل استعمال الطاعات والفضائل، وهذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي والرذائل. وقد نص الله تعالى في غير موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل. قال تعالى حاكياً عن قوم} : وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} (الملك: 10) ثم قال مصدقاً لهم: {فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير} (الملك: 11) [4].

---

1 أنظر : الفصل ، 1/192،244 ; زكريا إبراهيم : ابن حزم ، ص214،215 ; عبدالباقى السيد : ابن حزم ، ص318-321.

2 أنظر : طوق الحمامة ، دار الجيل ، بيروت ، ص 14.

3عن ذلك بالتفصيل أنظر : أحمد طاهر النقيب : منهج المدرسة الظاهرية فى تفسير النصوص الدينية ، دار ابن حزم ، الرياض ، ط1 ، 1425هـ/2004م ، ص29-127.

4 أنظر : مداواة النفوس ، رسائل ابن حزم ، 1/378.

وفى غير ما موضع من كتبه نجده يشيد بأهمية العقل ودوره ، ومن ذلك قوله : "علمنا بضرورة العقل" [1] "يدرك فساده بأول العقل وضرورته" [2] "بضرورة العقل وبديهته" [3] "بضرورة العقل وبالنص علمنا" [4] "وبضرورة العقل علمنا أن ما أوجبه الله علينا في أموالنا فإنه يقع عليه اسم دين بلا شك، ثم بالنصوص علمنا – وبضرورة العقل "[5]

وكذلك يعرف العقل في كتابه (الإحكام) في باب إثبات حجج العقول بقول: "إنما العقل الفهم عن الله لأوامر"[6] وفي باب لاحق يقول وبالصيغة الحصرية "إنما العقل فهم عن الله تعالى ومميز للأشياء التي قد رتبها البارى تعالى على ما هى عليه فقط"[7] أيضًا "إنما هو تمييز الموجودات على ما هى عليه وفهم الخطاب فقط "[8].

فالعقل عن ابن حزم هو هذه المبادئ الأولية الضرورية الفطرية والتي لا يطلب على صحتها برهان، إذا أوقعها الله في نفس كل إنسان فتكون مصدرًا من مصادر علمه ومعرفته ويقول ابن حزم في هذا المعني: " فهذه المقدمات، الصحاح التي ذكرنا هي التي لا شك فيها، ولا سبيل إلى أن يطلب عليها دليلاً إلا مجنون أو جاهل لا يعلم حقائق الأشياء ومن الطفل أهدى منه، وهذا أمر يستوى في الإقرار به كبار جميع بني أدم وصغارهم في أقطار الأرض، إلاّ من غالط حسه، وكابر عقله، فيلحق بالمجانين،

(1)ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق: أحمد شمس الدين، مصد سابق، 3/ 179.
(2) المصدر السابق، 3/314.
(3) المصدر السابق، 3/ 307.
(4) المصدر السابق، 2/ 96.
(5) ابن حزم : الفصل، 3/ 252.
(6) ابن حزم، الإحكام فى أصول الأحكام ، 1/44.
(7) المصدر السابق، 1/85.
(8) نفس المصدر والصفحة.

لأن الإستدلال على الشيء لا يكون إلا في زمان، ولابد ضرورة أن يعُلم ذلك بأول العقل، لأنه قد علم بضرورة العقل أنه لا يكون شيء مما في العالم إلاّ في وقت، وليس بين أول أوقات تميز النفس في هذا العالم، وبين إدراكها لكل ما ذكرنا مهلة ألبتة، لا دقيقة ولا أقل ولا أكثر فلا سبيل إلى الإستدلال عليها،.. فصح أنها ضرورات أوقعها الله في النفس" [1].

ومما سبق يتضح ان ابن حزم يبحث فى كل حال عن مبدأ عقلى يستند إليه فى تمييز صحيح الخبر من سقيمه ، ومن ثم فهو القائل فى مبحث إثبات حجج العقول من كتابه الإحكام : " يقال لجميعهم: بأي شيء عرفتم صحة ما تدعون إليه، وصحة التوحيد والنبوة، ودينك الذي أنت عليه، أبعقل ذلك على صحة كل ذلك أم بغير عقل ؟ وبأي شيء عرفت فضل من قلدت، أو صحة ما ادعيت أنك ألهمته بعد أن لم تكن ملهماً إليه ولا مقلداً له برهة من دهرك ؟ وبأي شيء عرفت صحة ما بلغك من الأخبار بعد أن لم تكن بلغتك؟ وهل لك من عقل أم لا عقل لك ؟ [2]. بل إن العقل كان له نصيب كبير فى دراسة ابن حزم للعقائد ، ومن ثم فقد عول على العقل فى تقرير أصل الوحدانية وإثباتها ، وكذا فى إثبات اصل النبوة ، ودلالة معجزات الرسل ، ودلالة القرآن على صدق النبى محمد ...[3].

وهكذا نجد ابن حزم يعلى من شأن العقل فى التثبت من صحة الروايات ، حتى تقوم دراسة التاريخ على أسس موضوعية كافية .

---

(1) ابن حزم : الفصل ، 1/ 40.

(2)ابن حزم : الإحكام ، 1/18.

(3)محمد أبو زهرة : ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة , ط1، 1954م ، ص226.

رابعا : أما بشأن الموضوعية التامة فلعل أبرز ما يؤكد ذلك أن ابن حزم كان أموى النزعة ، إلا أنه حال عرضه لقضية الخلاف بين على بن أبى طالب ومعاوية بن ابى سفيان وقف بجانب على بن أبى طالب ، ورجح بالحجج والبراهين موقفه ، وجعله هو الإمام الحق الواجب طاعته ، وأن معاوية هو الخارج عليه ، ورد على كل من رجح كفة معاوية على كفة على **(1)**.

أضف إلى ذلك أن ولاء ابن حزم لبنى أمية لم يمنعه من أن يعلن رأيه صراحة بحيادية وموضوعية تامة فى حكام وأمراء بنى أمية بالمشرق والمغرب فانتقد يزيد بن معاوية لما فعله بالصحابة فى موقعة الحرة سنة 63هـ/683م، ووصف كل من يزيد عبدالملك، والحكم الربضى، وعبدالرحمن الناصر بالانهماك فى المعاصى واللذات والمجاهرة بذلك، ووصف للمستكفى بالحماقة والبعد عن كل خلة خير والجمع لكل خلة سوء، ووصف هشام بن الحكم المستنصر، وهشام المعتد بالله بالضعف والتغلب عليهما(2).

خامسا : أما بخصوص الإحساس والذوق والعاطفة والتسامح والخيال فالمطالع لكتابه طوق الحمامة ، وكذا لرسالته النفيسة مداواة النفوس يجد كل هذه الصفات متأصلة فى طبعه (3).

سادسا : أما بشأن الضبط . فقد اشتهر بذلك وجل من ترجموا له أجمعوا على هذا الأمر يقول تلميذه الحميدى : " وما رأينا مثله رحمه الله فى ما اجتمع له من الذكاء

(1) أنظر: الفصل،3/88،87،85،83،82 .

(2) ابن حزم : أسماء الخلفاء ، ص 112; وانظر : نقط العروس، رسائل 2/73، 75، 76 ; عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص178.

(3) أنظر : مقدمة طوق الحمامة ، رسائل 1/ 73-78 ; مداواة النفوس ، رسائل ابن حزم ، 1/347.

وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين وكان له فى الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل قال: وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير قال: وقد جمعناه على حروف المعجم " (1).

وقال الغزالي (وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنة) (2)

ويؤكد هذه الخصال لا سيما الضبط وقوة الحفظ ما ذكره الذهبى عن ابن حزم قائلا : " ورأيته قد ذكر قول من يقول : أجل المصنفات الموطأ .فقال : بل أولى الكتب بالتعظيم صحيحا البخاري ومسلم ، وصحيح ابن السكن ومنتقى ابن الجارود ، والمنتقى لقاسم بن أصبغ ، ثم بعدها كتاب أبي داود ، وكتاب النسائي ، والمصنف لقاسم بن أصبغ ، مصنف أبي جعفر الطحاوي ..... .ثم :قال ومسند البزار ، ومسند ابني أبي شيبة ، ومسند أحمد بن حنبل ، ومسند إسحاق ، ومسند الطيالسي ، ومسند الحسن بن سفيان ، ومسند ابن سنجر ، ومسند عبد الله بن محمد المسندي ، ومسند يعقوب بن شيبة ، ومسند علي بن المديني ، ومسند ابن أبي غرزة ، وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم صرفا ، ثم الكتب التي فيها كلامه وكلام غيره ، مثل مصنف عبد الرزاق ، ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، ومصنف بقي بن مخلد ، وكتاب محمد بن نصر المروزي ، وكتاب ابن المنذر الأكبر والأصغر ، ثم مصنف حماد بن سلمة ، وموطأ مالك بن أنس ، وموطأ ابن أبي ذئب ، وموطأ ابن وهب ، ومصنف وكيع ، ومصنف محمد بن يوسف الفريابي ، ومصنف سعيد بن منصور ، ومسائل أحمد بن حنبل ، وفقه أبي عبيد ، وفقه أبي ثور. " (3).

(1) أنظر : جذوة المقتبس ، 1/489-491.

(2) نقلا عن الذهبى ، تذكرة الحفاظ ، 3/347.

(3)سير أعلام النبلاء ، 18/202،203.

ويرتبط بالضبط مسألة الدقة والأمانة فى النقل والعزو ، وهو ما غلب على ابن حزم فى أسلوبه . فدوما نراه حال النقل يعزو لمن ينقل عنه ، ويذكر أحيانا أماكن النقل ، ومن ذلك قوله : وقد قال يوحنا في أول إنجيله (1) ، وقوله : وقد قال لوقا في آخر إنجيله (2).

وإذا حدث بحادثة عن أحد أصحابه نراه يذكره باسمه ، ومن ذلك قوله : وقد أخبرني بعض أصدقائنا وهو محمد بن عبد الرحمن بن عقبة رحمه الله تعالى أنه عارض بهذا البرهان بعض الملحدين وهو عبد الله بن عبد الله بن شنيف فعارضه الملحد في قوله بخلود الجنة والنار وأهلها (3).

بل رأيناه يؤكد للقارىء مطالعته للنص الذى ينقل عنه ويصفه بدقة كما فعل مع النص التوراتى حيث وصفه بقوله : " فما ظنكم بمثل هذا العدد من الكذب والمناقضة في مقدار توراتهم وإنما هي مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق في كل صفحة منها من ثلاثة وعشرين سطرا إلى نحو ذلك بخط هوإلى الانفساخ أقرب يكون في السطر بضع عشرة كلمة " (4).

وتجدر الإشارة إلى أن مرتبة التاريخ عنده تأتي بعد مجموعة من العلوم وهي: النحو واللغة والمنطق والعلوم الرياضية والطبيعية. فإذا أَحْكَمَ ذلك... فلا يكن منه إغفال لمطالعة أخبار الأمم السالفة والخالفة, وقراءة التواريخ القديمة والحديثة... (5) ولكن نظراً لأسباب عديدة , قلَّ التأليف والتدوين التاريخيّيْن عند ابن حزم ، ومنها :

1 أنظر : الفصل ، 73/1
2 أنظر : الفصل ، 72/1
3 أنظر : الفصل ، 31/1.
4 أنظر : الفصل ، 213/1.
5 ابن حزم: رسالة مراتب العلوم ، رسائل ابن حزم ، 72/4.

أولا : حرْق معظم كتبه والذى تسبب فى ضياع الكثير منها ، وإن وجدنا من تلاميذه من احتفى واهتم بها ، وكذا ابن حزم نفسه تفرغ فى نهاية عمره لإعادة ما أحرق. إلا أن عملية الإحراق زهدت الناس فى كتبه بلا شك ، ومن جملتها المصنفات التاريخية.

ثانيا : الأذى السياسي والفقهي الذى لحق بابن حزم لم يجعله يتفرغ للتدوين التاريخى .

ثالثا : المعارك العلمية التي كان يخوض غمارها فقْهيا وفلسفيا وكلاميا وسياسيا ; حيث أنه فتح على نفسه جبهاتِ قتالٍ مع سائر المذاهب والطوائف الإسلامية وغير الإسلامية, كل ذلك ساهم في عدم تفرُّغ أبي محمد للتأليف في التاريخ.

رابعا : المعارك السياسية التى خاضها ابن حزم ، لأجل مساندة الدولة الأموية فى الأندلس ، وتعرضه للسجن غير ما مرة .

ورغم كل ما سبق من أسباب قللت التدوين التاريخى عند ابن حزم فإن همَّه التاريخي كان كامنا في البحث عن القانون التاريخي, فقيمة التاريخ الحقيقية عنده, تنكشف عندما تتم صياغة خلاصات تاريخية سليمة من مجموع الوقائع والأحداث والحقائق بحيث تكون لهذه الخلاصات القدرة على أن تلمّ بمدى تأثير الماضي على الحاضر. (1) ولقناعة ابن حزم بأهمية التاريخ, وحبّه الشديد له واعتماده عليه, كل ذلك دفعه للعناية به.(2).

1 أنظر : سعيد بنكروم وآخرون : ابن حزم الأندلسي: المنهج والمعرفة ، منشورات كلية الآداب، جامعة الحسن الثاني، المغرب ، 2005م ، ص203.

2 ابن حزم: رسالة مراتب العلوم ، رسائل ابن حزم ، 4/72-73.

ولذا فإنه لَمْ يكن من قبيل الصدفة أن يكون ابن حزم مؤرّخا ممتازا, فقد اجتمعت له من الصفات الذاتية والموضوعية, ما أهّله ليكون رائدا من روّاد التاريخ الإسلامي, ومن ذلك مثلا: الصدق والضبط وقوة الذاكرة والذكاء والدقة, وقوة الملاحظة وحسْن الإستدلال وجودة الإستنباط , وربْط الأحداث بعضها ببعض, كل ذلك جعل منه راويةً أميناً, ومحقّقا نزيها, فلا غرو إذن, أن يطلِق عليه كبار النّقاد والمؤرخين في هذا العصر من دارسى فكره التاريخى والمعايشين له لقب:"المؤرّخ".(1).

وتجدر الإشارة إلى أن النزعة التاريخية لابن حزم تتجلى من خلال التراث التاريخي الذي تركه. ونحن نستطيع أن نعتبر مصنَّفه الجامع" :الفَصْلُ في الملل والأهواء والنحل" تاريخا مقارنا للأديان والمذاهب الدينية...ولم تخلُ معظم رسائله ومؤلفاته من الإشارات التاريخية ذات المغزى, خاصة:"طوق الحمامة "والذي يشير في مواطن عديدة منه إلى حوادث تاريخية عاصرها, كما تحوي كتبه الأخرى مجموعة من النوادر والنظائر التاريخية المدهشة, التي يقتضي اقتناصها وتنسيقها مقدرة فائقة ومعرفة شاملة بمختلف التواريخ...(2) .

وأما المادة التاريخية فهي موجودة في مؤلفاته ورسائله المطبوعة والموجودة بين ايادى الناس , ومنها: "نقْط العروس في تواريخ الخلفاء", " أمهات الخلفاء " ," جمل فتوح الإسلام", " أسماء الخلفاء", " فضل الأندلس وذكر رجالها" ، "طوق الحمامة" ، "جوامع السيرة" ، وجمهرة أنساب العرب ، ومصنّفه الضخم:"الفصْل فى الملل

1 أنظر : عبد الحليم عويس: ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري ، الزهراء للإعلام، القاهرة ، 1988م ، ص198-213.

2 عنان: ابن حزم المؤرخ الذى أرخ لعصر ملوك الطوائف ، مجلة العربي ،1988م ، ص81 .

والأهواء والنحل " تأريخا لاهوتيا مقارنا للأديان , مع إشارات تاريخية لمذاهب النصارى واليهود وغيرهم [1].

لقد كان للمذهب الظاهري أثر كبير في كتابات ابن حزم التاريخية; ذلك لأن التاريخ يشكل إطارا معرفياً لخدمة المشروع النهضوي الحزمي [2] إذ شهد عصر ابن حزم أحداثا كبرى كسقوط الخلافة الأموية، وظهور ملوك الطوائف وتفاقم الخطر النصراني وتعاظم دور اليهود في كثير من مدن الأندلس; ناهيك عن النزاعات العرقية والطائفية التي أسهمت في تصدع وحدة الأندلس. لذلك اهتم ابن حزم ومدرسته بدراسة التاريخ مفيدا من فقهه المستقل الذي يحارب التقليد ويعول على الدليل، مما أحدث طفرة في الفكر التاريخي الأندلسي ، وهو ما يتضح من خلال موسوعته الشهيرة فى تاريخ الأديان : " الفصل فى الملل والأهواء والنحل " ، وكذا فى رسالته العظيمة فى فضل الأندلس ، وكذا جمهرته فى الأنساب ، وهذه الكتب الثلاثة ، وغيرها أحدث تغييرا جذريا فى نظرة المؤرخين النمطيين للتاريخ ، ومن ثم كان ابن حزم بنظرته الواسعة والمتميزة صاحب فضل على جل من أتى من بعده فى تناوله للتاريخ [3].

وبناء على النزعة النقدية فقد انفرد ابن حزم بالسكوت عن الكثير من الأخبار المشكوك في صحتها، والتي تبارى المؤرخون في بسطها والاستطراد في عرضها دون روية . كما انفرد أيضا بإيراد الكثير من المسكوت عنه ، خصوصا في مجال العقائد والأفكار. ولا غرو، فقد نبه مرارا إلى أهواء مؤرخي السلطان وما ترتب عليها من مغالط وأوهام.

---

1 عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة ، دار النهضة العربية, بيروت ، ط4 ، 1985م ، ص 177.

2 محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، سينا للنشر ، القاهرة ، 2000م ، عصر الازدهار، 3/ 126 وما بعدها.

3 أنظر عن ذلك : عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص260.

بيد أن اهتمام ابن حزم بتحقيق الأخبار لم يحل دون اهتمامه بالتفسير والتأويل. وحق قول من ذهب إلى أنه وعى بأن وراء الجزئيات في رصد أحداث التاريخ عوامل كبرى تؤثر في حركته [1] ، ولاغرو، فالتاريخ في مخيال ابن حزم نتيجة فعاليات بشرية، ومن ثم رفض مفهوم العناية الإلهية وطرح بديلا عنه مفهوم الطبيعة الممكنة في التصرف ; بمعنى أن الفعل التأريخي لا يخضع للجبر والقسر، بل هو رهين مشيئة واختيار.

ومن مميزات ابن حزم ونظرته الرائدة للحركة التاريخية رفضه ما درج عليه معاصروه من ربط الأحداث التاريخية بحركة الكواكب; فشهر بهم وبالاشتغال بأحكام النجوم ، بديهي أيضا أن يعزف عن الأسطورة والسحر والخرافة في تفسير التاريخ; إنما وقائعه وأحداثه إلى العقل والتجربة [2].

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم استفاد كثيرا من طريقة أهل الحديث والفكر الفلسفي فى التدوين التاريخى ، ومن المعروف أن طريقة أهل الحديث تعتمد على نقد السند أي على التعديل والتجريح للرواة ، ونظرا لأهمية الخبر بالنسبة للمذهب الظاهري، وكونه الدعامة الثاني – بعد القرآن – في ذلك المذهب; الأمر الذى يستدعي معرفة شاملة دقيقة لعلم الرجال، مثلما يفترض الحذر الشديد في تقبل الخبر، وفي هذه الناحية وضع ابن حزم بين المتعنتين في التوثيق [3] ، وانتقده بعضهم لارتكابه عدة أخطاء في حق رواة مشهورين وصفهم بأنهم مجهولون مثل محمد بن عيسى الترمذي صاحب السنن ، والبغوي وإسماعيل بن محمد الصفار وأبي العباس الأصم [4] ، حتى لقد قال ابن حجر في ترجمة الترمذي : " وأما أبو محمد ابن حزم فإنه نادى على نفسه

1 عبدالحليم عويس : ابن حزم ، ص125.
2 نفس المرجع والمكان والصفحة .
3 السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص205
4 ابن حجر : تهذيب التهذيب ، حيدر آباد الدكن ، 1325هـ-1327هـ ، 388/9 ; وانظر : السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص205.

بعدم الاطلاع فقال في كتاب الفرائض من الإيصال : محمد بن عيسى بن سورة مجهول، ولا يقولن قائل: لعله ما عرف الترمذي ولا اطلع على حفظه ولا على تصانيفه، فإن هذا الرجل قد أطلق هذه العبارة في خلق من المشهورين من الثقات الحفاظ" (1).

وقد حاول الذهبى أن يعتذر عن ابن حزم لتجهيله الترمذى – أى قوله فيه أنه مجهول– بأن سنن الترمذى لم تعرف فى الأندلس إلا بعد وفاة ابن حزم فقال : " ما ذكر – أى ابن حزم– سنن ابن ماجة ولا جامع أبى عيسى فإنه ما رآهما ولا أدخلا إلى الأندلس إلا بعد موته. "

هذا الكلام الذى دافع به الذهبى عن ابن حزم ، ومن قبله ابن القطان تلقفه البعض ليشنعوا على ابن حزم ، وليؤكدوا أنه جهل الترمذى وأنه مات ولم يعرف كتابه الجامع وهذا وهم واضح وباطل بين البطلان للآتى:

أولا : أن ذكر الترمذى كان مشهورا بالأندلس حتى على ألسنة مشايخ ابن حزم وفى كتبهم ومنهم العلامة ابن الفرضى المالكى شيخ ابن حزم والذى ذكر الترمذى ونبه على قدره فى كتابه " المؤتلف والمختلف" (2)

ثانيا : أن الكتاب كان يدرس بالأندلس فى أواخر القرن الرابع الهجرى والذى شهد مولد ابن حزم ، وممن درسه يحيى بن محمد الجيانى (توفى 390هـ) وعن الجيانى روى ابن عبدالبر جامع الترمذى من طريقه .

---

1 ابن حجر : نفس المصدر والمكان والصفحة .

2 أشار إلى هذا الكتاب كل من ابن حزم فى رسالته فى فضل الأندلس ضمن مجموعة رسائله بتحقيق العلامة إحسان عباس وعده من الأعمال الكبيرة التي قدمها الأندلسيون وتفوقوا بها على أهل المشرق ، وأنه في أسماء الرجال وأن الحافظ عبد الغني الأزدي المصرى لم يبلغ عند هذا المعنى إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد نحو الثلاثين ، كما وضّح ابن حزم أنه لا يعلم مثله في فنه البتة ، وذكره الحميدي فى جذوة المقتبس، والضبى فى بغية الملتمس ، والذهبي فى سير أعلام النبلاء وفى تذكرة الحفاظ ، كما ذكره ، وقد ذكره ابن بشكوال فى صلته بقوله : (وجمع في المؤتلف والمختلف كتابا حسنا). وللأسف هذا الكتاب الفريد فى حكم المفقود فى حدود علمى.

ثالثا : أن ابن عبدالبر ذكر الترمذى فى كتابه العظيم التمهيد ، وابن حزم قرظ هذا الكتاب أيضا فى رسالته الباهرة ([1]).

ومما أخذ على ابن حزم من أخطاء حال نقد الروايات والأخبار الحديثية والتاريخية تجهيله كدام بن عبد الرحمن السلمي ([2]) ، وخلطه بين كثير بن زيد الأسلمي وكثير بن عبد الله بن زيد بن عمرو . فيقول في الثاني : ساقط متفق على إطراحه والرواية عنه، فيتعقبه البغدادي في ذلك ([3]) ; كما تعقبه الحافظ قطب الدين الحلبي ثم المصري فيما وقع فيه من أخطاء في كتاب المحلى خاصة ، ومن ذلك عند إيراده حديث لا صلاة بعد طلوع الفجر إلا ركعتي الفجر، قال :الرواية في هذا الباب ساقطة مطروحة مكذوبة، فذكر منها طريق يسار مولى ابن عمر عن كعب بن مرة وقال: يسار مجهول ومدلس، وكعب لا يدري من هو، قال القطب :يسار قال أبو زرعة مدني ثقة.

وقال ابن حزم في حديث عائشة، قلت: يا رسول الله قصرت وأتممت وصمت وأفطرت قال: أصبت يا عائشة، انفرد به العلاء بن زهير وهو مجهول، قال القطب: أخرج الحديث النسائي والدارقطني وروى عن العلاء وكيع وأبو نعيم والفريابي وغيرهم وقال ابن معين: ثقة.

وقال ابن حزم في حديث أم سلمة: كنت ألبس أوضاحا من ذهب... الحديث; عتاب: مجهول; قال القطب :أخرج الحديث أبو داود محمد بن عيسى بن الطباع عن عتاب وهو ابن بشير، عن ثابت بن عجلان عن عطاء عنها; وعتاب هو ابن بشير الجزري روى عنه إسحاق بن راهويه ومحمد بن سلام البيكندي وغيرهما، وأخرج له البخاري، وأخرج الحديث المذكور الحاكم في المستدرك، وقال ابن معين: ثقة.

---

1 عبدالباقى السيد : سؤالات وتساؤلات عن أهل الظاهر ، مقال بمجلة فقه الوحى الإلكترونية ، العدد الأول رجب 1433هـ / يونية 2012 م ، ص22-24.

2 ابن حجر : تهذيب التهذيب ، 8/ 431.

3 ابن حجر : تهذيب التهذيب ، 8/ 414،415.

وقال ابن حزم في الحديث الذي أخرجه النسائي من طريق المرقع بن صيفي عن جده رباح بن الربيع :كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لرجل: أدرك خالدا فقل له لا تقتل ذرية ولا عسيفا; المرقع مجهول; قال القطب روى عنه ولده عمر ويحيى بن سعيد الأنصاري ويونس بن أبي إسحاق وأبو الزناد وموسى بن عقبة، وذكره ابن حبان في الثقات، فليس بمجهول (1) .

ومما أخذ على ابن حزم بشأن الجرح والتعديل تصحيف جميل بن كريب لديه فأصبح جميل بن جرير (2) وحبة بن مسلم فأصبح حبة بن سهل (3) .

ومما أخذ على ابن حزم أيضا وقوعه فيما يعرف عند المحدثين والمؤرخين بأخطاء قلب النسب، أو الاختصار فيه أو سقوط بعض أجزائه ، ومن ذلك ما ذكره ابن حزم بشأن : نصر بن عاصم الأنطاكي وصحح له حديثا في كتابه المحلى; واسم الراوى خطأ وصوابه عبد الله بن نصر الأصم ; فسقط عبد الله من النسب وصحف الأصم بعاصم(4).

ومما أخذ عليه وقوعه فيما عرف من خطأ التشابه في الاسم والنسب معا ، ومن ذلك ما قاله ابن حزم بشأن عبد الله بن عمرو بن لويم، حيث قال ابن حزم فيه: مجهول، وعده غيره في الصحابة، فقال ابن حجر معلقا: " ثم ظهر لي أن ابن حزم ما عنى هذا وإنما عنى آخر يوافقه في الاسم والأب والجد " (5) .

---

1 ابن حجر : لسان الميزان ، 4/ 201،202.
2 نفسه ، 2/ 135.
3 نفسه ، 2/ 166، 167.
4 نفسه ، 6/ 155.
5 نفسه ، 3/ 321.

وأيا ما كان فلا جدال في أن ابن حزم قد وقع في أخطاء بشأن الجرح والتعديل ، ولكن لهذه الأخطاء أو الاجتهادات عند من يعدونها أخطاء أو اجتهادات تفسيرات مختلفة، منها:

أولا : اختلاف مناهج المحدثين فى المشرق عنهم فى المغرب ، لا سيما فيما يخص التعديل والتجريح ، ومكانة الراوى.

ثانيا : عدم إحاطة ابن حزم ببعض الرواة كان يدفعه إلى تجهيله ، رغم أنه كان معروفا عند غيره .

ثالثا : عدم خروج ابن حزم لرحلة مشرقية يتعرف من خلالها على منهج المشارقة عيانا جهارا ويقف على مكانة المشاهير اثر عليه قطعا فى معرفة البعض من الرواة .

رابعا : سعة حافظة ابن حزم كانت تدفعه لأن يهجم على القول في التعديل والتجريح فيقع له من ذلك أوهام شنيعة على حد قول ابن حجر العسقلانى [1] .

خامسا : وقوع التصحيف فى بعض الرواة ، أو سقوط اسم من نسب أحد الرواة ، وهذا وقع لابن حزم كما سبق وان أشرنا إليه آنفا.

سادسا : الخلاف في التعديل والتجريح بين العلماء على توثيق أحد الرواة ، وابن حزم في كثير من علمه في الرجال يعتمد على من سبقوه ، فإذا اختار تجريح أحدهم فمعنى ذلك أنه – في أغلب الأحيان – اتبع في الحكم عليه أحد السابقين ، ولذلك فليس حجة على ابن حزم أن يقال: فلان وثقه ابن معين أو عده ابن حبان في الثقات. فهذا محمد بن سليمان المشمولي المخزومي ذكره ابن حبان في الثقات، كما ذكره العقيلي

1 أنظر : لسان الميزان ، 4/198.

والساجي والدولابي وابن الجارود في الضعفاء، فليس أحد الموقفين بملزم لابن حزم، وإنما هو يحكم رأيه فيما يراه مناسبا، ولهذا يقول فيه: منكر الحديث [1] ، ومن ثم فإن ابن حزم كان متميزا فى نظرته لتعديل وتجريح الرواة ، الذين عليهم مدار نقد الرواية التاريخية والحديثية فى آن واحد ، كما كان متميزا فى نظرته للتاريخ ، وكذا فى دفاعه عن مذهبه الظاهرى.

لقد أصبح لابن حزم منظوره الخاص فى محاكمة الروايات التاريخية والذى استمده من علم الحديث، ومن ثم كان يتحرى الدقة ويتشدد في محاكمة السند ، وكذا كانت له نظرة متميزة فى مناقشة المتون ، ومعرضة الروايات بعضها ببعض ، من خلال ما عرف بفلسفة التاريخ والتى سبق بها ابن خلدون بقرون ، وهو الأمر الذى سنفصل الحديث عنه بالفصل الخامس.

وتجدر الإشارة إلى أن منظور ابن حزم للتاريخ لم يكن نمطيا ولا تقليديا قاصرا على ما كان مشتهرا بين مؤرخى زمانه ومن سبقهم . بل تفتح فكره على الدراسات الفلسفية والمنطقية ، وتزيد منها وعكف عليها فشرح بعضها وانتقد البعض الآخر ، ومن ثم فقد مهدت له هذه الدراسات تحكيم العقل في الرواية نفسها لا في رواتها، ورفضها على أساس عقلي، كما وسعت لديه الآفاق بحيث تجاوز موقفه الظاهري الذي يحرص عليه في باب التشريع; وقد لحظ ذلك ابن كثير فعبر عنه بقوله : " والعجب كل العجب منه أنه كان ظاهريا حائرا في الفروع لا يقول بشيء من القياس لا الجلي ولا غيره، .... وكان مع هذا من أشد الناس تأويلا في باب الأصول وآيات الصفات وأحاديث الصفات لأنه كان أولا قد تضلع من علم المنطق... " [2] .

1 نفسه ، 186/5.

2 أنظر : البداية والنهاية ، 92/12.

ولابد مما ليس منه بد أن نقرر أن ابن حزم رغم جهوده فى علم التاريخ ونظرته المتميزة له فإنه قد اكتفى بموقف هامشي أو ثانوى للتاريخ في مؤلفاته، ومرجع ذلك إلى النقاط التالية:

أولا : أن نظرة ابن حزم إلى التاريخ كانت قائمة على أنه أداة لا غاية في ذاته، وأنه يفيد في شيئين: التربية النفسية الأخلاقية، وخدمة الشريعة فإن اشتغل مغفل عن علم الشريعة بعلم غيره فقد أساء النظر وظلم نفسه، إذ آثر الأدنى والأقل منفعة على الأعلى والأعظم منفعة، فإن قال قائل إن في علم العدد والهيئة والمنطق معرفة الأشياء على ما هي عليه، قلنا إن هذا حسن إذا قصد به الاستدلال على الصانع للأشياء بصنعته، ليتدرج بذلك إلى الفوز والنجاة والخلاص من العذاب والنكد " [1] ، فكل العلوم ومنها التاريخ أدوات توصل في النهاية إلى الفوز والنجاة، وهي المطلب الأسمى، وذلك عن طريق ما تؤديه تلك العلوم من فهم للخالق وإقرار بالنبوة، وإسعاف على فهم علم الشريعة جملة.

ثانيا : الإخفاق السياسي الذي منيت به الأندلس بعد الفتنة البربرية، وإخفاق ابن حزم نفسه في الاحتفاظ بالمجد الدنيوي أو في العمل السياسي، وفي ما أصبح يعانيه من وضع اقتصادي، وكان البديل عن كل ذلك زهدية معتدلة توجه خطواته، وتحدد غايته على نحو واضح، وهي التوجه الكلي إلى الآخرة، والإكباب على الشريعة وتسخير جميع القوى والروافد في خدمتها.

ثالثا : تأثره ببعض الزهاد فضلا عن والده فى استثمار وقته فيما يعود عليه بالنفع فى اليخرة ، والبعد عن كل ما من شأنه يذهب بوقته دون استفاده ، ومن ثم لجأ إلى قضية عدم تفريع التاريخ ، وعدم السير وراء أحداثه واختصارها فى رسائل بسيطة تقربها

1 أنظر : رسالة مراتب العلوم ، رسائل ابن حزم ، 4/74.

للناس كى يستفيدوا منها الفائدة المرجوة ، ولذا فهو القائل : "واعلم أن من طلب علم الشريعة ليدرك به رياسة أو يكسب به مالا فقد هلك، لأنه طلبه لغير ما أمره به خالقه أن يطلبه، لأن خالقنا، عز وجل، إنما أمرنا أن نطلب ما شرع لنا لننجو به بعد الموت من العذاب والسخط... (1) ، ومن ثم فقد فعلت في نفسه تلك الكلمة التي سمع محمد بن إسحاق الزاهد يقولها لأبيه : " احرص على أن لا تعمل شيئا إلا بنية فإنك تؤجر في جميع أعمالك، فإنك ترى ذلك في ميزان حسناتك " (2) ; وقد لقنته الفتنة درسا عميقا وأملت عليه قبول التقلب في ارتفاع وهبوط، دون تذمر أو شكوى، وكانت تعرض له تلك الحكمة التي سمعها من أبيه ذات يوم:

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن ... على حالة إلا رضيت بدونها (3).

رابعا : أن ابن حزم أخذ يبحث في التاريخ عن النموذج الأعلى الذي يتمثله ويسير على دربه ، فوجده في الرسول، ولهذا لخص طريقته في الحياة بكلمات عميقة الدلالة : يلبس الشعر إذا حضره، ويلبس الوشي من الحبرات إذا حضره، .... ومرة يأكل التمر دون خبز، والخبز يابسا، ومرة يأكل العناق المشوية ... يأخذ القوت ويترك الفضل، ويترك ما لا يحتاج إليه، ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة إليه (4).

1 أنظر : رسالة التوقيف على شارع النجاة ، ص55.
2 الحميدى : جذوة المقتبس ، ص41.
3 ابن بشكوال : الصلة ، ص31.
4 أنظر : رسال ابن حزم ، 1/377.

obeikan.com

المبحث الثانى

ابن حزم وفلسفة التاريخ

إذا كانت الفلسفة هي نتاج للتأمل العقلي في موضوعات ما, فإن فلسفة التاريخ أو تفسير التاريخ في العصر الحديث, صارت مصطلحا يشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ:

أحدهما تلك الدراسة التي تتضمن في جملتها, الفحص النقدي الدقيق لمنهج المؤرخ، واختبار ما يدّعيه أصحاب المنهج التاريخي من معارف أو حقائق.

وثانيهما تفسير التاريخ, ومحاولة استخلاص بعض القوانين والسنن التي تحكم حركة التاريخ, ومحاولة التنبؤ العقلي بحدوث وقائع تاريخية مستقبلا. (1). لذلك نجد الفقيه الظاهري ابن حزم, يعلن عن اعتماده على العقل, فالعقل عنده هو المعيار الدقيق للتثبت من صحة الروايات, حتى تقوم دراسة التاريخ على أسس موضوعية كافية. فابن حزم المؤرخ الواقعي الذي لم يعتدّ إلّا بشهادة الحس والعقل, هو بعينه أيضا ابن حزم فيلسوف التاريخ الذي أراد أن يقيم دراسة الوقائع التاريخية على أسس موضوعية دون تجاوز لأوّليات الحس والعقل ، ومن ثم فقد جمع بين منهجيْ النقل والعقل في تآزر وتكامل, موقنا بأن هذا هو المنهج الصحيح للبحث.(2) أي أنه جمع بين المنهجيْن الضروريين وهما :

أولا : منهج التحقيق في السّند وتقييم الرواة.

1 عبد الحليم عويس: تفسير التاريخ علم إسلامي ، دار الوفاء , القاهرة , 1998م ، ص.15-17.
2 عبد الحليم عويس: تفسير التاريخ ، ص227،231.

ثانيا : منهج النّظر في النص- المتن- من حيث المحتوى.

ولأن التاريخ يستدعي كمًّا هائلا من المعلومات ووعيا واسعا, وإلماما شاسعا بمجموعة من المعارف. وليس هذا فحسب; بل نقدها وتمحيصها وإعادة تحليلها وتركيبها, للإستفادة منها وجعلها فاعلة, فلهذا أخضع ابن حزم الخبر لميزان العقل, فلم يُسلِّم بكل ما ورد في الأخبار, بل قام بتمحيص الخبر التاريخي, لأن ذلك من مهام المؤرخ, وهذا ما نلاحظه جلياً من خلال عرضه لآراء الفرق والملل التي ناقشها في كتابه:"الفصل". حيث تجلت براعة ابن حزم المؤرخ, من حيث الدقة البالغة في تحليل النصوص, واختيار الرواية الصائبة بعد النظر والنقد والمقارنة, مع الإختصار والإستيعاب, مما يتيح للقارئ مواصلة القراءة بنوع من الإستمتاع والإنبساط, والإستزادة من المعارف التاريخية والأدبية والدينية وغيرها.(1)

فالإختصار وشهادة الحس وتحكيم العقل من أسس فلسفة التاريخ عنده, وهذه العناصر هي التي سيؤكّدها ابن خلدون بعده بثلاثة قرون ونصف على حد قول منظر كبير من المحدثين.(2) .

لقد كان ابن حزم يشعر شعورا واضحا, بأن الحاضر ثمرة الماضي, وأن المستقبل لن يكون إلا صدى للماضي والحاضر ، وكلّ ذلك قد أتيح لابن حزم أن يقوم به. ولذلك فإنّ منهجه النقدي تميّز بالأحكام القاطعة, نتيجة اعتماده على المذهب الظاهري

1 عبدالحليم عويس : ابن حزم ، ص214-235.

2 عمر فروخ : ابن حزم الكبير ، دار لبنان للنشر، بيروت، ط.1، 1980م ، ص118.

في توثيق سند الرواية ومتْنها, وعلى أخذه بأسلوب التحليل المنطقي العقلي, مما حقّق له قدرا كبيرا من الثقة في نتائج دراساته.[1] .

على أن أهمية ابن حزم كمؤرخ, لَا تنحصر فقط فيما خلّف لنا من مصنفات تاريخية, وإنما تتجلى بصفة خاصة في المنهج الذي اصطنعه لدراسة أحداث التاريخ وفلسفته لها, وحُكمه على وقائع عصره.[2] ولهذا جاء التاريخ محقِّقا لكثير من تنبّؤاته, إذ دبّ الفساد في أوصال دويلات الطوائف, وما لبثت أن انهارت تحت سيف ملك قشتالة, وهو أيضا مصير كل أمة يدبّ فيها سوس الفساد.

وبذلك يثبت ابن حزم أنه المؤرخ اللبيب, والمحقّق المتثبت, الذي يستند في تنبؤاته وتفسيراته التاريخية إلى فهم صحيح لفلسفة التاريخ.

الجدير بالذكر أن ابن حزم لم يكن مؤرخا يكتفي بجمع الحوادث وتدوينها ليستعرض بها مقدراته التاريخية, بل يمكن عدّهُ من فلاسفة التاريخ أيضا. لأنه يعتبر أهمَّ من ظهرت لديه تفسيرات تاريخية واضحة في هذه الحقبة, وهو يذهب شأنه شأن سائر المؤرخين المسلمين المتقدمين إلى أن للتاريخ فائدة, أو غاية يمكن أن تستخلص جوانبها من وراء الدراسة المتأنيّة للأحداث والوقائع. [3] ومن ثم يمكن الحكم عليه بكونه مؤرخا عظيما ,كما كان فيلسوفا عظيما, وإماما من أعظم أئمة التفكير

1 حامد طاهر : منهج البحث بين التنظير والتطبيق ، دار نهضة مصر، القاهرة , ط1, 2007م ، ص111.

2 زكريا إبراهيم : ابن حزم الأندلسى المفكر الظاهري الموسوعي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة, 1966م ، ص221.

3 عبد الحليم عويس: تفسير التاريخ علم إسلامي ، ص108.

الإسلامي.[1] وقد ترك لنا مدرسة تاريخية على رأسها تلميذاه : أبو عبد الله الأزدي الحميدي(ت.488هـ) صاحب:"جذوة المقتبس" وأبو القاسم صاعد (ت463هـ) صاحب: "طبقات الأمم" وكلاهما يعتبر امتداداً لفكر ابن حزم, وتأثُّراً به.

ومن أبرز الذين تأثّروا به أيضا ابن خلدون(ت.808هـ) الذي كان يصف ابن حزم بإمام المؤرخين, وقد أخذ عنه طريقته في نقد الرواية التاريخية; بل والغريب في الأمر أن الأمثلة التي اعتمدها ابن خلدون ليُبيّن بها ما يعْرِض للمؤرخين من الأوهام والأغلاط, أخذها عن ابن حزم, كما اقتبس منه أيضا, سبُل نقد وإزالة هذه الأوهام وتفنيدها.[2] وليس إهمال هذا الأخير ,وعدم اعترافه بفضل ابن حزم, إلّا لأنه كان يميل إلى البربر وينقم على العرب, كما كان مالكيا وأشعريّا متعصبا, في حين كان ابن حزم يميل للعرب, وظاهريا متشددا يمقت المالكية والأشعرية; ثم لأن ذلك نهْجٌ سار عليه كثير من المؤرخين.

ورغم أن نقد ابن حزم التاريخى وفلسفته التاريخية لم يهتم بها إلا فى القرن الثامن الهجرى على يد ابن خلدون كما سنبين بعد قليل . فقد كانت آراؤه ذات تأثير كبير على مؤرخى الأندلس الذين اعتمدوا على ترجيحاته ، وأحكامه القاطعة ، ورواياته التاريخية الموثوق فيها ، مثل (ابن حيان فى كتابيه المقتبس والمتين ، والحميدى فى كتابه جذوة المقتبس ، وابن بشكوال فى كتابه الصلة ، والضبى فى كتابه بغية الملتمس ، وابن

1 عنان: ابن حزم الفيلسوف الأندلسي الذي أرّخ لمجتمع الطوائف ، مقال بمجلة العربي الكويتية ، العدد:20، 1988م ، ص81-85.

2عبد الحليم عويس : التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون ، طبع وزارة الأوقاف ، الدوحة , قطر , ط1، 1996م ، ص84.

الأبار فى كتابه الحلة السيراء ، وابن سعيد فى كتابه المغرب ، وابن بسام فى الذخيرة ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام) .(1)

وقد ذهب المؤرخ المعاصر: محمد عنان إلى القول: لم تكن صفة المؤرخ لدى أبي محمد – ابن حزم– صفة عارضة إجتمعت إلى جانب صفاته الأساسية الأخرى, وهي أنه فيلسوف من أعظم فلاسفة الشرق والغرب, ولكننا نستطيع القول: إن صفة المؤرخ هي أيضا من صفات ابن حزم الأساسية... ويمكن أن يُصنَّفَ بكتابه:"جمهرة أنساب العرب" وحده, في عداد أكابر المؤرخين. (2) .

1عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص260.

2 محمد عبد الله عنان: ابن حزم ، ص80.

obeikan.com

obeikan.com

المبحث الثالث
منهج ابن حزم وأسلوبه فى الكتابة التاريخية :

يقوم المنهج التاريخي على قاعدتين أساسيتين: هما النقد الخارجي ، والنقد الداخلي للنصوص, حيث يستنطق الباحث الوثيقة التاريخية, للتأكد من صدقها ولإثبات صحتها من فسادها, ولتبيُّن مصادرها والطرق التي حُفظت بها, وكيفية روايتها ووصولها إلى المؤرخ. ولضبط صحة الرواية ومضمون النصوص, وخلوّها من التناقض ونحو ذلك .

ورغم أن مصطلح المنهج, بمعناه العلمي لم يظهر إلا حديثا, لكنّ دلَالَات وإشارات منهجية عديدة تؤكد وجوده فى كتابات ابن حزم وتراثه ، ولذا يمكننا اعتبار ابن حزم من روّاد هذا الفكر في تاريخ الإنسانية. بل إنه" رائد هذا النوع من البحوث في الفكر الإنساني كلّه" على حدّ تعبير مؤرّخ الأديان الفرنسي" لابوليه" (1).

ولعل أوضح وأبرز مثال على ذلك, هو نقد ابن حزم لتوراة اليهود, وتطبيقه لمنهج النقد التاريخي على نصوصها ، وهو في هذا المنهج الذي اتبعه, لَا يختلف كثيرا عن منهج النقد التاريخي الحديث, وإنْ لم يكن قد استخدم نفس المصطلحات الحديثة; لكنه في الواقع كان واعيا تمام الوعي بخطوات المنهج, وطريقة تطبيقها على المادة التاريخية التي كانت بين يديه. خاصة وأنه يُعدّ من حفّاظ الحديث, بل ومن روّاد الجرح والتعديل, لَاسيّما وأنه كان من المتشدّدين في نقد الرجال, حيث أنه أدخل قانون الجرح والتعديل, وطبّقه في دراساته على الأخبار والنصوص, والفِرق والمِلل والنِّحل التي تعرّض لدراستها.(2) .

---

1 أنظر : الدراسات المقارنة للأديان ،1/108.

2 حامد طاهر: منهج البحث ، ص 91،92.

وكما كان النقد منهجا لعلماء الحديث. فإنه طُبِّق أيضا عند المؤرخين المسلمين وكان يطلق على هذا الإتجاه : "مدرسة النقد التاريخي" حيث كان المؤرخون يتزعمونها. (1) فلا غرو إذاً أن يستخدم ابن حزم هذا المنهج, موظّفا له في نقد الخبر المرتبط بالمجتمعات غير الإسلامية, مخصّصا لذلك فصولا عديدة من كتابه الموسوعي: "الفصْل فى الملل والأهواء والنحل" لنقد الأخبار والروايات التاريخية. وبهذا المنهج إنبرى ابن حزم لنقد اليهود والنصارى, الذين أسّسوا تاريخا أسطوريا, مليئا بالتزوير والتحريف, للكشف عن حقيقته وبيان تهافته ، وكذا انتقد الصابئة والبراهمة والمجوس وغيرهم.(2).

ومن ثم أتيح له أن يجمع بين نقد أئمة الحديث في توثيق الأخبار ,وبين نظرة أهل الفلسفة والمنطق في استخدام العقل, لقبول أو رفض هذه الروايات أو تلك, يضاف إلى ذلك ما كان يمتلكه من وقائع وأخبار تاريخية .

لقد أفاد ابن حزم من رافدين ثقافيين, هما: طريقة أهل الحديث ومنهجية التفكير الفلسفي, حيث تعتمد طريقة أهل الحديث على نقد السند والمتن, مما كان له أثره الواضح على أحكامه التاريخية, ومن نافلة القول التأكيد هنا على أهمية الخبر بالنسبة للمذهب الظاهري(3).

لقد كان التاريخ بالنسبة له متنفَّسا لتسجيل الوقائع والأوضاع الإجتماعية والسياسية المزرية التي مرّت الأندلس بها فى محاولة لإعادة الأندلس إلى سابق عهدها ومن ذلك قوله لما سئل عن حالة الأندلس فى عهد ملوك الطوائف فراح يصف ذلك

1 أكرم العمري: بحوث في السنة المشرّفة ، ص53.
2 أنظر : الفصل ، 1/117-361.
3 أنظر : إحسان عباس : مقدمة الجزء الثانى من رسائل ابن حزم ، 2/13-15.

بالفتنة ويفصل أفعالهم الخسيسة التى أهلكت الحرث والنسل وأفسدت الأندلس لأجل مصالحهم ومنافعهم مبينا فسادهم ، ودور العلماء فى تزيين الفساد لهم بقوله : " وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، ولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد; للذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم .فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم.... (1) .

فابن حزم هنا يصور الأندلس وحكامها صورة مأسوية ، وكذا الفقهاء ، وهو فى كل هذا مدرك تماما أنه يجمع فى تصويره بين المؤرخ والفقيه الذى يصدر الحكم بطريقة رادعة لعلها تفيق أهل الغفلة من غفلتهم ، فيتركون ما هم عليه من الفساد والإفساد سواء الأمراء أو الفقهاء .

ومع أنه قد يبدو للبعض أن ابن حزم ظاهريٌّ نصّيٌّ حرفيٌّ, لكن المتوغّل في ثنايا مؤلفاته, يذهل لِمَا يرى من دعوته للعقل; بل إلى وجوب الإعتماد عليه لولا العقل ما عرفنا الغائب عن الحواس, ولَا عرفنا الله عز وجل, ومن كذّب عقله فقد كذّب الذي

1 أنظر : رسالة التلخيص ، رسائل ابن حزم ، 2/173.

لولاه لم يعرف ربّه. (1) كما استعان أبو محمد بمجموعة من المعارف أو ما يطلق عليه في مناهج البحث الحديثة بالعلوم المساعدة, وهي التي تساعد الباحث على بلورة الموضوع الذي يتناوله من أجل الوصول إلى النتيجة المطلوبة. فالمنهج الذي أمدّه به علم الحديث منهج يتحرى الدقة, فتلبّست به روح المنهج الحديثي ووجّهت فكره التاريخي, يضاف إلى ذلك اشتغاله بالعلوم العقلية: الفلسفة والمنطق, مما مكّنه من أن يتكوّن لديه ذلك الخيال الذي يسمّونه: "صابون التاريخ", والذي يضفي على العمل التاريخي وزنه وأهميته, ويتيح للمؤرخ النظر إلى الحادثة من زوايا مختلفة; بل ويجعله ذلك أقدر على القياس والمقايسة, و الإقتباس و المقابسة. ويعتبر قياس الماضي على الحاضر في مجال التاريخ بصفة خاصة, إنجازا هامّا لدى ابن حزم, وهناك احتمال كبير في أن ابن خلدون أفاد من ابن حزم في هذه الفكرة. (2) لأنه من المعروف لدى المؤرخين أن ابن خلدون دوَّن نظريا منهج البحث التاريخي, لكنه مع ذلك لم يطبِّقه واقعيّاً, ولم يرتفع به إلى مستوى النظرية التي وضعها و دعا لِاتّباعها عند دراسة الوقائع التاريخية, إلا أنّ مؤرخا واحدا فقط, وعلى امتداد القرون الثمانية الأولى من تاريخ الإسلام, هو الذي اعتمد منهج النقد التاريخي في كتاباته أكثر من ابن خلدون, هذا المؤرخ الوحيد هو ابن حزم. حيث كانت كتاباته في التاريخ ماتعة رائعة ,وذات جودة عالية, توفّرت فيها مقوّمات التأليف في التاريخ, وأهمها: القدرة على نقد الروايات التاريخية سندا ومتنا.(3) .

وقد انتظم منهج النقد هذا, وظهر جلياً من خلال ردّه للكثير من الروايات المزيّفة والأساطير, ومزاعم الملل والنحل الأخرى, بل وحتى الفرق الكلامية, فكانت طريقة أهل الجرح والتعديل, إضافة إلى الفلسفة والمنطق والإحصاء والاقتصاد وغيرها من

1 ابن حزم : التقريب لحد المنطق ، رسائل ابن حزم ، 4/314.
2 أنظر : حامد طاهر: منهج البحث ، ص111.
3 أنظر : عبدالحليم عويس : ابن حزم وجهوده ، ص165.

العلوم, أبرز أدواته التي دكّ بها مزاعم خصومه, وهو ما لم يستطع ابن خلدون ذاته أن يلتزم به, وعلى الرغم من وضعه لنظرية النقد التاريخية, إلّا أنه لم يستطع استحضارها في تاريخه.(1) يضاف إلى ذلك, ما تميزت به كتابات أبي محمد التاريخية, من الدقة والتحري وضبط الوقائع وإحصائها, إلى جانب براعته في فهم الأحداث وتمحيصها ونقدها, موظّفا منهج الجرح والتعديل الذي أضفاه على التاريخ, فكان يصوّب ما يراه خطأً في الروايات التاريخية, مُبيّناً زيفها وكاشفا اللُّبس عنها. لأجل ذلك كان نموذجا للتوثيق, احتذى به العديد من المؤرخين, أبرزهم ابن خلدون الذي أشاد به قائلا: " وقد أبْطَله إمامُ النَّسَّابِين والعلماء ابن حزم." (2) إذ أنّ الخبر عند ابن حزم, إما أن يكون صادقا وإما أن يكون كاذبا, وكل ما نُقِل لابدّ له من مقياس, يُتبين به الخبر الصادق من الكاذب. " فلم يبق إلا أن من الخبر حقّا وباطلا, فإذا كان كذلك, بطل أن يعلم صحة الخبر بنفسه, إذ لَا فرق بين صورة الحق منه وصورة الباطل, فلابدّ من دليل يفرق بينهما, وليس ذلك إلا لحجة العقل المفرّقة بين الحق والباطل. " (3) .

فهذا النص يفيد أن المقدمات الإخبارية التي تتسق مع الأوائل تنتج موجبة صادقة, وما ينتج عن القضايا المتصلة بالمشاهدات والتجارب صادق كذلك, والخبر الذي يورده صادقٌ قامَ بصِدقه برهان, صحيحٌ ضرورةً ,والخبر الذي يورده مجتمعون تواترا, هو صحيح أيضا .

1 أنظر : إحسان عباس : مقدمة الجزء الثانى من رسائل ابن حزم ، 12/2.
2 ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، 79/6.
3 ابن حزم : الإحكام ، 16/1.

ومن هنا نرى أن صدق الخبر لَا يتوقّف على صدق مضمونه أو متنه فحسب, بل وأيضا على صدْق الذي جاء بموجبه ما نتحقق من صدق دعواه.[1] .

ومن ثم فإنّ الحوادث التاريخية لا سبيل إلى إنكارها ، وإنما يرتكز قبولها على نقل الكافة, وبذلك يكون ابن حزم قد اعتمد على منهج نقديّ للتاريخ, اختطّه بناءًا على مقارنات واسعة, وإحصاءات مستفيضة, وأدلة عقلية .والمعرفة التاريخية عنده تأتينا عن طريق الخبر الشفوي أو الكتابي, ويُتأكّدُ من صحتها تجريبيا وعقليا, أي التثبّت من صدقها يكون بالإعتماد على أوائل الحس وبديهيات العقل ، ويؤكد ذلك بقوله : " تدخل صحة المعرفة بما صحّحه النقل عند المخبِر تحقيقَ ضرورةٍ, كعلمنا أن الفيل موجود ولم نره, وأن مصر ومكة في الدنيا, وأنه كان عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام ...وكوقعة صفّين والجمل...وكالأخبار تتظاهر عندنا كل يوم, مما لا يجد المرء للشك فيه مساغا عنده أصلا... [2]

فما أشار إليه ابن حزم هنا من الحديث عن المسائل الإخبارية المنقولة بطريق التواتر, هي أمور يُصدَّق بها, لأنه لا يصحّ في مثلها المواطأة على الكذب, كضرورة تصديقنا بوجود أمصار و بلدان وإن لم نشاهدها, وكعِلمنا بوجود أنبياء وفلاسفة على الرغم من عدم رؤيتنا لهم. فبالضرورة يعلم أنها حق متيقن مقطوع به ، ولهذا لم تصمد كثير من أخبار الأمم الأخرى أمام انتقاداته, حيث خَلُص إلى أن التاريخ الإسلامي هو أصحّ التواريخ, وأما تواريخ الأمم الأخرى فإنّ تاريخها لا يرقى إلى صدق وصحة التاريخ الإسلامي ، ويعبر عن ذلك قائلا : " فأصحّ التواريخ عندنا تاريخ الملة الإسلامية... فالطالب للأخبار ينبغي له ألاّ يشتغل إلا بما أعلمناه بصحته – ولا ينبغي

1 أنور خالد الزعبي: ظاهرية ابن حزم الأندلسي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، 1996م ، ص.106.

2 أنظر : التقريب لحد المنطق ، رسائل ابن حزم ، 286/4.

له قطع وقته بما لا يجدي عليه نفعا- لا بما أخبرناه ببطلانه فقد كفيناه التعب في ذلك"[1] .

وهكذا فالمنهج التاريخي عند ابن حزم يقوم على ضرورة فهم الخبر التاريخي ونقده لتخليصه من الشوائب والأوهام, متّبعا معايير عقلانيةٍ لقبول الخبر الصحيح الصادق وهي:

أولا : أن يكون معلوما صحته بأوائل العقل والحس .

ثانيا : أن يعتمد على برهان يؤكد صحته .

ثالثا : أن ينقله صادق, قد قام على صدقه برهان, فهو صحيح ضرورة .

رابعا : أن ينقله بالتواتر صادقون مجتمعون.[2]

وقد استعان ابن حزم في سبيل تحقيق ذلك بالجمع بين المنطق والإحصاء والمقارنة والتواتر والعقلانية , للتثبت من صحة وصدق الأخبار التاريخية; و لذلك أكّد محققا جوامع السيرة لابن حزم على أن ابن حزم امتلك كل مقوّمات وصفات المؤرخ المنصف النزيه.[3] .

ومما يلفت النظر هنا اعتماد ابن حزم على الإحصاء، ويكاد هذا القانون الإحصائي أن ينتظم العدد الجم من رسائله التاريخية، حتى أكثر فصول السيرة بنيت على أساس

1 أنظر : رسالة مراتب العلوم ، رسائل ابن حزم ، 4/79،80.
2 ابن حزم : التقريب لحد المنطق ، رسائل ابن حزم ، 4/138.
3 أنظر : مقدمة جوامع السيرة ، ص12.

من هذا المنهج، وكذلك رسائل أخرى من مثل رسالته في القراءات وأسماء الصحابة الرواة وأصحاب الفتيا من الصحابة .

بل إن هذا المنهج الإحصائى نجده واضحا أيضا مع ابن حزم وهو يتعقب شبهات ابن النغريلة اليهودى الذى زعم أن بالقرآن تناقضات حيث اعترض ابن النغريلة على قوله تعالى: "أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها" (النازعات، 27، 32) وظن أنها تتعارض مع قول تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم" (البقرة : 29). والظاهر كما ذهب ابن حزم أن دلالات الآيتين متكاملتان، ويمكن إدراك هذا التكامل بالاكتفاء بظاهر معنييهما دون جنوح إلى التأويل، ذلك أنه لما أخبر بأنه بنى السماء ورفع سمكها وأحكم الدور الذي به يظهر الليل والنهار، وأنه بعد ذلك أخرج ماء الأرض ومرعاها وأرسى الجبال فيها، وجعل من السماء سبع سموات مفرقا بينها في طوائف سبع، ويه التي فيها مدار الكواكب المتحيرة والقمر والشمس [1] وفي السياق ذاته يورد ابن النغريلة قوله تعالى: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين" (فصلت : 10) إلى منتهى قوله تعالى: ".. وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين"، فيكون تمام ذلك ستة أيام، ثم يذكر قوله: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان" (فصلت : 11) إلى قوله: "فقضاهن سبع سموات في يومين" (فصلت: 12)، كما يذكر قوله في هذا السياق: "ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام"، (ق:38).

والإشكال المطروح –هنا– هو الاختلاف العددي في خلق السموات والأرض، لكن سرعان ما يتبدد هذا الوهم، إذا علم أن الله فسر عملية الخلق، فيومان للأرض وأربعة لتقدير القوت فيها، ويومان للسموات، بعد أن فرغ من خلق الأرض، أي

1 أنظر : ابن حزم : رسالة فى الرد عل ابن النغريلة اليهود ، ص15،52.

ضمن الأيام الأربعة الأخرى، التي قدر فيها الرزق، ويبدو أن ابن النغريلة قد أخلط بين دلالة "الخلق"، ودلالة "التقدير"، فظن أنهما شيء واحد، والحقيقة أنهما مختلفان [1].

ويمكننا أن نلخص منهج ابن حزم بخصوص الرواة ومتى نقبل منهم ومتى نرفض رواياتهم على النحو التالى :

أولا : قوله فى الراوى الثقة " ومما غلط فيه بعض أصحاب الحديث أنه قال فلان يحتمل في الرقائق ولا يحتمل في الأحكام ....وهذا باطل لأنه تقسيم فاسد لا برهان عليه بل البرهان يبطله وذلك أنه لا يخلو كل أحد في الأرض من أن يكون فاسقا أو غير فاسق فإن كان غير فاسق كان عدلا ولا سبيل إلى مرتبة ثالثة فالعدل ينقسم إلى قسمين فقيه وغير فقيه فالفقيه العدل مقبول في كل شيء والفاسق لا يحتمل في شيء والعدل غير الحافظ لا تقبل نذارته خاصة في شيء من الأشياء لأن شرط القبول الذي نص الله تعالى عليه ليس موجودا فيه ومن كان عدلا في بعض نقله فهو عدل في سائره ومن المحال أن يجوز قبول بعض خبره ولا يجوز قبول سائره إلا بنص من الله تعالى أو إجماع في التفريق بين ذلك وإلا فهو تحكم بلا برهان وقول بلا علم وذلك لا يحل .... وأيضا فقد يعلم الأقل عدالة ما لا يعلمه من هو أتم منه عدالة وقد جهل أبو بكر وعمر ميراث الجدة وعلمه المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة وبينهما وبين أبي بكر وعمر بون بعيد إلا أنهم كلهم عدول.." [2].

ثانيا : رأيه في الراوي الضعيف : فهو يرى أن الراوي إما أن يكون ثقة أو ضعيفاً وإذا كان ضعيفاً فإن حديثه كله ضعيف لا يمكن أن يتقوى! ، ويقول ابن حزم عن ذلك : " وكذلك نقطع ونبت بأن كل خبر لم يأت قط إلا مرسلاً ، أولم يروه قط إلا

1 نفسه ، ص53.

2 أنظر : الإحكام ، 1/ 133.

مجهول ، أو مجرح ثابت الجرحة ، فإنه خبر باطل بلا شك ! موضوع لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم!! " [1].

ثالثا : كلامه على الرواة جرحاً وتعديلاً : يلاحظ على أحكام ابن حزم على الرواة ما يلي:

1- وقوع بعض الوهم منه في تمييز الرواة.

ومن أمثلة ذلك : ما ذكره الذهبي حيث قال : "عكرمة بن خالد بن سعيد بن العاصي المخزومي فمكي معروف ، ثقة من مشيخة ابن جريج. أخطأ ابن حزم في تضعيفه ، وذلك لأن أبا محمد فيما حكاه ابن القطان كان وقع إليه كتاب الساجي في الرجال فاختصره ورتبه على الحروف ، فزلق في هذا الرجل بالذي قبله ولم يتفطن لذلك "[2].

2- تشدده في باب جرح الرواة.

فقد انفرد ابن حزم بتضعيف بعض من الرواة ، ولأجل تشدده في بعض مسائل الجرح والتعديل أيضاً ، فمن ذلك : أنه يرى أن الجرح مقدم على التعديل مطلقاً ، مع اشتراطه تفسير الجرح [3] ، .ويرى أن التدليس جرح في الراوي وفسق موجب لاطراح حديثه كله ، وأن الراوي إذا قبل التلقين ولو مرة واحدة سقط حديثه كله [4] .

ومن أحكامه على العهود والدول قوله الجامع في وصف الدولتين الأموية والعباسية: " وانقطعت دولة بني أمية، وكانت دولة عربية لم يتخذوا قاعدة، إنما كان سكنى كل امرئ منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجان الأموال ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا

1 نفسه ، 127/1.
2 الذهبى : الميزان ، 113/5.
3 ابن حزم : الإحكام ، 135/1.
4 ابن حزم : الإحكام ، 132/1.

التسويد ويكاتبوهم بالعبودية والملك، ولا تقبيل الأرض ولا رجل ولا يد، وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية.... فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلب عليهم بنو العباس بالمشرق، وانقطع بهم ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وملكها هو وبنوه، وقامت به دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة، فلم يك في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصرا على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير، وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بذهابها. وانتقل الأمر بالمشرق إلى بني العباس ... وكانت دولتهم أعجمية، سقطت فيها دواوين العرب، وغلب عجم خراسان على الأمر، وعاد الأمر ملكا عضوضا محققا كسرويا.... " (1).

وفي مثل هذا الحكم على الدول يتضح " الجانب التركيبي " في نظرات ابن حزم، بحيث يستطيع المرء أن يحل هذه المركبات في بحوث مفردة، وتبدو في ذلك مهارة ابن حزم في انتقاء السمات المميزة، مثلما يبدو جانب هام آخر من حس المؤرخ لديه، وذلك أنه لا ينظر إلى منجزات الدولة الواحدة نظرته إلى بعض الأفراد من ذوي المسؤولية فيها، وإنما يرى هذه المنجزات من منظار المميزات الكبرى، وتلك تتجلى في ما أصاب الجماعة من خير، فقد يعيب هو الوليد بن عبد الملك ويصفه بالطغيان (2) أو يعيب مروان بن الحكم ويتهمه بأنه شق عصا الجماعة ويقول فيه: " مروان ما نعلم له جرحة قبل خروجه على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما " (3) ولكنه يبرز الخصائص الإيجابية التي تتميز بها الدولة الأموية بكلمات دقيقة دالة، ولا يضع سيئات الأفراد على كاهل الدولة كلها.

---

1 ابن عذارى : البيان المغرب 2/ 39 ، 40.
2 ابن حزم : نقط العروس، فقرة 22، ص: 71.
3 أنظر : المحلى 236/1.

ومع ذلك نجد ابن حيان يقول فيه : " وكان مما يزيد في شنآنه تشيعه لأمراء بني أمية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والأندلس، واعتقاده لصحة إمامتهم، وانحرافه عمن سواهم من قريش حتى نسب إلى النصب لغيرهم " [1] .

وهذه المقولة تستحق وقفة متأنيا فى النقاط التالية :

أولا : أول ما يجب أن نقف عنده لفظة " تشيعه " ، فهذه اللفظة تدل على الموالاة والمحبة والتقدير، دون أن يدخل فيها معنى العصبية التي قد تؤسس أحيانا على غير حق وتصبح تعصبا; وهذا " التشيع " يتفق وما قلناه عن تقديره لدور الدولة جملة، ولكنه لا يعني إغماض الطرف عن سيئاتها وعن سيئات القائمين على أمورها; ويكفي المرء أن يجمع أحكام ابن حزم في أفراد بأعيانهم من أمويي المشرق والمغرب ليدرك أنه كان أبعد من أن يوصف بالتعصب، ولكنه كان يرى للدولة الأموية في الأندلس دورها الكبير ويقارن بين ما كانت عليه الأمور في عهدها وما صارت إليه في عهد ملوك الطوائف، فلا يستطيع منطق وحدة الجماعة عنده أن يقبل ذلك التفكك والتناحر، ولا يستطيع منطق السيادة كما كانت تمثله الدولة الأموية أن يتقبل منطق العبودية الذي كانت تمارسه دول الطوائف. وليس بمستغرب بعد هذا أن يعترف بصحة إمامة الأمويين في المشرق والمغرب.

ثانيا : وأما انحرافه عمن سواهم من قريش فإنه كلام غير دقيق، وحسبك أنه يؤمن بخلافة ابن الزبير ولا يؤمن بخلافة مروان، وأنه لا ينكر دور بني العباس في الخلافة وما كان لهم من مآثر. ولم يكن في الأندلس من القرشيين – عدا الأمويين – إلا بنو حمود، وهؤلاء لديه كسائر ملوك الطوائف من غير قريش.

1 نقلا عن ابن بسام : الذخيرة 1/1: 169.

ثالثا : وهذا الحب للأمويين لم يكن سرا خافيا بل لعله اتصل بالواقع العملي، ولكن المتصدين وجدوا طريقهم للإيقاع بابن حزم عن طريق ذلك الحب، يقول هو في هذا الصدد: " وفي أثر ذلك (أي بيعة علي بن حمود) نكبني خيران صاحب المرية، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين – وقد انتقم الله منهم – عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتقلنا عند نفسه أشهرا ثم أخرجنا على جهة التغريب فصرنا إلى حصن القصر " (1) .

رابعا : لقد كان ابن حزم صادقا فى قوله وهو ينفي عن نفسه السعي في القيام بدعوة الأموية، ولكن الباغين كانوا يعرفون فيه حبه للدولة الأموية ويكيدون له من ذلك المدخل، ويلصقون به تهمة يسهل تصديقها. وقد كان هو – وإن لم يسع بنفسه لعودة الأموية – يحب عودتها، ويمني النفس بذلك عند ظهور المرتضى (407 ه)، فقد غادر المرية إلى بلنسية عند ظهور المرتضى بها (2) ، وأكبر الظن أنه فعل ذلك لأنه كان يؤمل عودة الخلافة، فلما عادت على وجه اليقين بمبايعة المعتد بالله أصبح ابن حزم أحد وزرائه.

الجدير بالذكر أن ابن حزم لم يكن يمثل خروجا على جمهرة المشاعر الأندلسية في نزعته الأموية، ولكنه كان أحد ألسنتها المعبرة عن " الأكثرية الصامتة " ، وقد صور ابن حزم ذلك في صرخة أطلقها حين قال: " وإن حنيني إلى كل عهد تقدم ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء .... وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا"(3).

1 ابن حزم : طوق الحمامة ، رسائل ابن حزم ، 1/ 261.
2 نفسه ، 1/262.
3 نفسه ، 1/125.

وحين احتجبت الخلافة الأموية ولم يبق منها إلا الحنين الواله إلى عهودها شحذت إلى درجة الإرهاف مشاعر الحب للأندلس; وهو حب يتجلى لدى ابن حزم في إبرازه للفكر الأندلسي ودفاعه عن مآثر بلده، ويتجلى بقوة في رسالته في فضل الأندلس والتى تنم كل عبارة من عباراتها على تعظيمه وحبه لها ومن ذلك قوله : " ونحن إذا ذكرنا ابا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريرا والفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين " (1) ومثل قوله: " ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي (2) " .

فهذه الأحكام وأمثالها يجب ألا تحملنا على نسبة العصبية لابن حزم، فإنما هي أحكام نقدية تقود على التذوق ويتفاوت فيها الناس; وإذا تجاوزنا الأحكام النقدية وجدنا ابن حزم يتحدث عن مآثر بلده دون تزيد، ودون لجوء إلى التعميم ، ومن ذلك قوله : " وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ولا تحققنا به، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا " (3) أو حين يقول: " وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النحل، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب، فهي على كل حال غير عرية عنه... " (4) .

وأما عن أسلوب ابن حزم في تدوين التاريخ . فكان يقوم غالبا على الإيجاز والتلخيص, مع العناية بالتعداد والإحصاء, وكان يحسن التبويب والتصنيف عند تجميعه للوقائع والأحداث. ولذلك فقد أزال عن التاريخ, ذلك الجفاء والتطويل المملّ

1 أنظر : رسالة في فضل الأندلس ، 2/187.
2نفس المصدر والمكان والصفحة .
3 أنظر : رسالة فى فضل الأندلس ، 2/185.
4 نفسه ، 2/186.

الذي نجده عادة في كتب كثير من المؤرخين, فجاءت مصنفاته التاريخية حسنة العرض, طريفة الأسلوب, حافلة بالنوادر والنظائر والمقارنات التاريخية المدهشة.([1]).

الجدير بالذكر أن منظور ابن حزم للتاريخ لم يمت بموته بل تأصلت نظرته فى مدرسته التاريخية من تلاميذه ، ومن تلاهم فيعد صاعد الأندلسي (ت 426 ه) من أشهر مؤرخي المدرسة الحزمية، ومن أكثر مريدي ابن حزم تبنيا لمشروعه، والتعبير عنه، بنفس الدرجة من الحماس والإخلاص ، وإن ترك المذهب الظاهرى إلى غيره وتنكر لشيخه بعض الشيء لما طعن فى معرفته بمنطق أرسطو (2).

يعد كتاب "طبقات الأمم" نتاج ثقافة عريضة في الفلسفة والمنطق، والفلك والرياضيات، والطب، فضلا عن الجغرافيا التاريخية، وسائر مقومات الحضارة.

لقد تأثر صاعد بأستاذه ابن حزم من حيث المنهج والمقصد; إذ نراه يتخذ من دراسة التاريخ درعا للمقاومة والنضال; رابطا بين تراث الغابرين ومعطيات الواقع الأندلسي. كذا اهتمامه بإبراز فضائل العنصر العربي باعتباره القوة الموكلة باستعادة وحدة الأندلس (3).

ويعد محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي (ت ٤٨٨ ه) أنموذجا فذا لتلامذة ابن حزم في حقل التاريخ ، إذ إنه تأثر بمنظور ابن حزم للتاريخ تأثرا واضحا ، فوظف العلوم النقلية والعقلية التى حصلها فى خدمة التاريخ كما فعل شيخه ، وهو ما يتضح من خلال كتابه المتاع : " جذوة المقتبس " الذى ينم عن اتباع منهج أستاذه ابن حزم ، فلم يهتم بالإسناد، كما عالج الأحداث والوقائع إستنادا إلى تحقيق الروايات. والنظر إلى التاريخ، باعتباره نتاج فعاليات بشرية. والكتاب خلو من الخوارق والأساطير

1 زكريا إبراهيم : ابن حزم ، ص227.
2 صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ، ص98.
3 أنظر : طبقات الأمم، ص 6

والخرافات، كما يحفل بإطلاق الأحكام عن طريق الاستقراء. هذا فضلا عن تنديد صاحبه بمن ندد بالرأي [1].

كذلك كان الحميدى كشيخه ابن حزم ملتزما الموضوعية والصدق; فبرغم التعويل على إحياء الخلافة الأموية في المشروع الحزمي; لم يتورع الحميدى عن انتقاد بعض أمراء الأندلس الأمويين من أمثال الحكم بن هشام الذي كان في نظر الحميدي طاغيا مسرفا، له آثار قبيحة. وهو الذي أوقع بالربض الواقعة المشهورة [2] ، وينم هذا الحكم عن انحياز للمستضعفين; لا لشيء إلا لأن المشروع الحزمي –فى التحليل الأخير– استهدف إصلاح الراعي والرعية في آن.

بل إن أثر ابن حزم فى منظوره للتاريخ لم يقف عند حد تلاميذه ، فى القرن الخامس الهجرى بل امتد إلى أيام الموحدين حيث نجد ابن دحية الكلبي يتأثر بما قام به ابن حزم بشأن مسألة المفاضلة بين الصحابة كقضية تاريخية اثارت الكثير من اللغط فيصنف كتابا فاضل فيه بين الصحابة المشاركين في معركة صفين أسماه "الإعلام المبين فى المفاضلة بين أهل صفين" [3] وهذا أوضح دليل على أثر ابن حزم ونجاحه فى التمكين لوجهة نظره الكامنة فى ضرورة معرفة أفضل الصحابة ثم الذين يلونهم ليزداد المؤمن اتباعا وإحسانا للأفضل منهم .

تناول ابن حزم التاريخ باعتباره علماً من العلوم ، وأطلق عليه علم الأخبار [4] ، وجعله قسما من الأقسام السبعة التى تنقسم إليها العلوم عند كل أمة ، وفى كل زمان

1 الحميدي: جذوة المقتيس في ذكر ولاة الأندلس، ص 7.
2 أنظر : جذوة المقتبس ، ص17.
(3) المقرى ، نفح الطيب،2/306 .
4 أنظر : رسالة مراتب العلوم ، رسائل ابن حزم ، 4/79.

ومكان [1] ، وذهب ابن حزم أن علم التاريخ ينقسم إلى مراتب أجملها على النحو التالى:

1- إما أن يدور على الممالك (تاريخ الدول) .
2- أو على السنين (التاريخ الحولى).
3- وإما على البلاد (تاريخ المدن أو التاريخ المحلى) .
4- وإما على الطبقات
5- أو منثورا ، (وهو التاريخ الذى يضم متفرقات متنوعة من الفنون والسياسة ، والآداب ، واللغة ، والعلوم وغيرها) .
6- أو علم النسب [2] .

ويتضح مما سبق أن ابن حزم يعد علم النسب جزءا من " علم الخبر " [3] وهو يدافع بقوة عن هذا الجزء. ويبطل قول من قال : " علم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر " [4]، ويبين أن الجهل بهذا العلم قد يؤدى إلى النكاح المحرم ، أو فقدان الحق فى الميراث ، وعدم معرفة الشخص المستحق للخلافة ..... [5] ، ويطبق ابن حزم دعوته عمليا عندما شرع فى تصنيف ، كتابه نسب البربر ، وكذا كتابه الشهير جمهرة أنساب العرب [6] .

---

1 نفسه ، ص78.
2 ابن حزم : رسالة فى مراتب العلوم ، رسائل ابن حزم ، تحقيق إحسان عباس ، 4/80-79.
3 أنظر : رسالة فى مراتب العلوم ، ص 80
4 ابن حزم : جمهرة أنساب العرب: 3 .
5 ابن حزم : جمهرة أنساب العرب: 4.
6 ابن حزم : جمهرة أنساب العرب: 3 – 6 ; وانظر : عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى ، ص260.

وقد ذهب أحد الباحثين المحدثين إلى أن دراسات ابن حزم المتنوعة يمكن أن تخرج لنا أنواعا أخرى تضم للمراتب السابقة ومنها :

1- تاريخ الأديان والأفكار .
2- تاريخ المعارف والعلوم .
3- التاريخ الاجتماعى .
4- التاريخ الاقتصادى [1].

لقد تحدث ابن حزم عن التاريخ بحسب الأمم مستقصياً ذكر الأمم المختلفة ، مميزا بين التواريخ المتصلة بها دون أن يلحظ الفرق بين اليونان والرومان، فيسمي الفريقين باسم الروم، وهذه هي الأمم التي ذكرها فى تقسيمه:

1- الأمة الإسلامية: وتاريخها هو أصح التواريخ.
2- بنو إسرائيل: تاريخهم أكثره صحيح .
3- الروم: يصح تاريخهم ابتداء من عهد الإسكندر.
4- أمم الشمال من ترك وخزر وغيرهم: لا تواريخ لهم.
5- أمم السودان: لا تواريخ لهم.

6-الهنود والصينيون: يقر ابن حزم أن أخبارهم لم تصلنا كما نريد، ولكن لهم تاريخا لأنهم أصحاب ضبط وتآليف.

7-الأمم الداثرة كالقبط واليمانيين والسريانيين والاشمانين وعمون ومآب: اندثرت أخبارهم ولم يبق منها إلا أكاذيب وخرافات.

1 عبدالحليم عويس : ابن حزم الأندلسى وجهوده فى البحث التاريخى والحضارى ، ص125.

8-الفرس: لا يصح شيء من أخبارهم قبل دارا وأصح أخبارهم ما كان من عهد أردشير [1] .

ومما سبق يمكننا القول أن ابن حزم أجهد نفسه في الاطلاع والبحث عن تواريخ الأمم ، ومن ثم فهو ينصح دارس التاريخ بأن يعتمد هذه النتيجة، فلا يضيع وقته في البحث عما لم يصح من التواريخ، إلا إذا أحب التعب لنفسه، فإنه عندئذ سينتهي إلى ما انتهى إليه ابن حزم .

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم نجح فى إبراز الفوائد والغايات التي يمكن أن يحققها الاطلاع على تواريخ الأمم فيما يلي:

1- التزهيد في الدنيا: بمعرفة تقلبها بأهلها، ومصاير الملوك الظالمين الذين لم ينفعهم حشدهم للأموال والجيوش.

2- القدوة الحسنة: إذ يقف المرء على حمد المتقين الأخيار للفضائل فيرغب فيها ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها; ويقرأ أخبار الصالحين فيجب أن يكون منهم وأخبار المفسدين فيمقت طرائقهم.

3- العبرة بالفناء، ودثور الحصون والمدائن وتعاقب الأجيال، وانتقال الأحوال من عمران إلى خراب.

4- تمييز الصواب من الخطأ في الأخبار: فحين تتناصر التواريخ على تفاوت الأزمان والديانات في نقل قصة، فهي حق، وحين يحدث الخلاف، يدري دارس التاريخ أن القصة مضطربة.

5- المتعة والرياضة والتنشيط: وذلك لأن علم الأخبار سهل، وعلى الإنسان أن يتعمد قراءته وقت سآمته من درس العلوم الأخرى أو وقت فراغه من

1 أنظر : رسالة مراتب العلوم ، رسائل ابن حزم ، 4/79.

العمل فيها. وكل هذه الأغراض يدل على أن التاريخ عند ابن حزم هام جدا في بناء شخصية الفرد، من الوجهة الأخلاقية والنفسية، خصوصا وأن دارسه لا يحتاج فيه إلى شيخ يوجه خطاه، بل يستطيع أن يعتمد على نفسه في طلبه (1).

وقد تقصينا الأسباب التى دفعت ابن حزم للاهتمام بالتاريخ فى كتابنا : " ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى " ، والتى يمكننا أن نجملها فى النقاط التالى:

أولا : ازدهار تدريس التاريخ آنذاك لارتباطه بالعلوم الشرعية ، فقد كان يستفاد منه فى معرفة تاريخ الرواه ومواطنهم وأنسابهم ، ومن ثم التعرف على صادقيهم من كاذبيهم . من خلال فحص ما نقل عنهم من روايات ، كما كان يستفاد منه فى التفسير من خلال اهتمامه بأسباب النزول التى لاتفهم آيات القرآن إلا بها . أضف إلى ذلك أهميته بالنسبة للفقه حيث الاستناد على بعض الوقائع التاريخية التى تؤيد الفتوى وتؤكدها .

ثانيا : أهمية التاريخ فى معرفة بعض الأنساب التى يعرف بها الحق من الباطل . كمعرفة أن الخلافة لا تجوز إلا لقرشى النسب ، ومعرفة أنساب الأنصار لنحسن إليهم . كما أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة من تحرم عليهم الصدقة من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة من يحل له الميراث ومن لايحل .

ثالثا : دعوة القرآن والسنة فى غير موضع إلى الاهتمام بالتاريخ وأخذ العبرة والعظة منه .

رابعا : تجريد التاريخ مما علق به من شكوك وملابسات . خاصة وقد توافرت فى ابن حزم شروط المؤرخ الحصيف من عدالة وضبط وعلم بطرق النقل وأحوال الناس ومقاديرهم ، ومعرفة مراتب العلوم ، وعدم المحاباة المفضية للعصبية .

1 أنظر : رسائل ابن حزم ، 10/2.

خامسا : محاولة ابن حزم أن ينشر فكره ومنهجه بكل الطرق . خاصة وأنه طبق منهجه الظاهرى على التاريخ عندما اعتبر أن النقل هو الأساس فى دراسة التاريخ قبل العقل ، ومن ثم صنف ابن حزم فى معظم فروع التاريخ من تراجم وطبقات وأنساب وسيرة ذاتية ، وتاريخ إقليمى ، وسيرة نبوية ، وتأريخ للفرق الإسلامية واليهودية والنصرانية .

سادسا : تأثير والده أحمد بن سعيد الذى كانت له اليد الطولى فى تشكيل ثقافه ابنه التاريخية ، حيث كان يحدثه بالأحداث المهمة التى وقعت فى عصره بحكم شخصه ومكانته فى الدولة (1).

(1) عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص 83-84.

obeikan.com

obeikan.com

المبحث الرابع
المرجعية التاريخية لابن حزم الظاهرى

تضاربت آراء الباحثين حول أهمية وقيمة ما كتبه ابن حزم في التاريخ. ففريق يرى أن التاريخ لم يأخذ إلا حيّزاً ضيّقاَ ويسيرا من مؤلفات ابن حزم, على الرغم من وفرتها وغزارتها, وأنّ ما قدّمه إنما هو مجرّد نظراتٍ تاريخية, تؤكد مدى اهتمامه بالروايات التاريخية, ولا تعبّر عن أيّ اهتمام أو انشغال منه بالتأليف في التاريخ [1] . على حين ذهب فريقٌ ثانٍ إلى التأكيد على أن ابن حزم مؤرّخ من أكابر المؤرّخين المسلمين المحترفين, بل وأفْرَدُوه بمكانة عالية ومتميزة بين المؤرخين. فذهب تلميذه الحميدي (ت488هـ) إلى القول : " وأبو محمد أعلمُ بالتواريخ..." [2] كما جعله المؤرخ صاعد الأندلسي(ت463هـ) في مقدمة المؤرخين الأندلسيين بوصفه له, بأنه:" أجمعُ أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام... مع وفور حظّه في المعرفة بالسِّيَر والأخبار " [3] . بل إنّ بعضهم, بوّأهُ مكانة عالية في التأليف والكتابة التاريخية, إذ يقول عنه محمد أبو زهرة : " يتقصَّى التاريخ ويُدوِّنه متحرّياً الحقيقة, وهو بذلك المؤرخ العميق النظر, يكتب في أدقّ أجزاء التاريخ وهو الأنساب." [4] ; ووصفه بعضهم بالمؤرخ الممتاز, الذي حاز على صفات الصدق, والضبط والدقة وقوة الملاحظة, وغيرها من الصفات التي جعلت منه راويةً أمينا ، ومؤرخا نزيها [5]. أمّا عاشق الأندلس وصاحب أشهر المصنفات فى تاريخيها المؤرخ الفذ محمد عبد الله عنّان فجعل ابن حزم في عداد

---

1 أنظر : إحسان عباس : مقدمة تحقيقه لرسائل ابن حزم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت, ط.2, 1987م ، 2/7-8.

2 أنظر : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية العامة ، القاهرة , 1966م ، ص239.

3 صاعد الأندلسي : طبقات الأمم" تحقيق: حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ص102.

4 محمد أبو زهرة : ابن حزم ، ص62-67.

5 زكريا إبراهيم : ابن حزم الأندلسى ، ص206.

المؤرخين المرموقين, أمثال الطبري والمسعودي, مُشيدا بمكانته التاريخية , وبكونه ليس مؤرخا عاديا, بل هو مؤرخ من طراز نادر.([1]) .

ولابد مما ليس منه بد بعد العرض السابق التأكيد على أن ابن حزم كانت له ثقافة تاريخية واسعة إلى جانب ثقافته الدينية والمنطقية والفلسفية, وغيرها ، وفي كل ذلك ما يكفي لأن يجعل منه مؤرخاً واسع الأفق, ومحقّقا أمينا, والحقُّ أنّ كتبه قلَّما تخلو من إشارات تاريخية ([2]) على ما سيتضح فيما بعد من خلال الحديث عن أجناس الكتابة التاريخية عنده فى الفصول التالية .

صحيح أن إنتاج ابن حزم التاريخي من حيث الكمّ ، لَا يرقى إلى مستوى المؤرّخين المشهورين, غير أنّ ذلك لَا يمنعنا من القول بأن رسالة :" نَقْطُ العروس" تُعدّ أبرز نموذج لكتابته التاريخية على صغر جرمها , وكذلك مؤلفاته الأخرى :"جوامع السيرة" و"جُمل فتوح الإسلام" و"جمهرة أنساب العرب" و"حجة الوداع "و"رسالة في فضل الأندلس" ، وكتابه العظيم الفصل فى الملل والأهواء والنحل الذى يعد تأريخا رائعا للفرق والأديان والأفكار ، وكذا كتابه " طوق الحمامة" رغم غلبة الطابع الأدبى عليه إلا أنه حوى أحداثا تاريخية خطيرة عن الأندلس خلال عصره وقبله ، ومن ثم فالتاريخ يكاد يكون شائعا في جميع كتب ابن حزم. ([3]) .

ورغم تضارب آراء الباحثين حول تحديد أهمية وقيمة ما كتبه ابن حزم في التاريخ كما سبق فقد توفرت لابن حزم أكثر الوسائل التي يحتاجها المؤرخ ، والتى يمكن أن نجملها فى التالى :

---

1 عبد الكريم خليفة : ابن حزم الأندلسي, حياته وأدبه دار العربية للنشر, بيروت ، د.ت ، ص110 ; وأنظر : زكريا إبراهيم : ابن حزم الأندلسي ، ص206 ; عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه لكتاب: جمهرة أنساب العرب لابن حزم, ، دار المعارف, القاهرة ، 1962م ، ص13.

2 عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة ، ص376.

3 عمر فروخ : ابن حزم الكبير ، دار لبنان للنشر، بيروت ، ط1، 1980م ، ص118.

أولا : سعة الاطلاع على المؤلفات التاريخية ومناهجها المختلفة ومنازعها المتعددة، ولقد حاول الدكتور عبد الحليم عويس أن يجمع أسماء الكتب التي اطلع عليها ابن حزم وأفادته في هذا المجال فذكر لنا أحد عشر كتابا استفاد منهم ابن حزم فى السيرة النبوية ، وذكر لنا أحد عشر كتابا استفاد منها ابن حزم فى تاريخ الخلافتين الأموية والعباسية فى المشرق حتى عصره ، وذكر لنا إحدى وعشرين كتابا استفاد منها ابن حزم فى تاريخ المغرب والأندلس ، وذكر لنا تسعة كتب استفاد منها فى تاريخ الملل والنحل [1] ، ورغم عظم الجهد المبذول فى تقصى المصنفات التى اطلع عليها ابن حزم ، وشكلت جزءا رئيسا من مصادره فى التدوين التاريخى فلا يمكن بحال أن نجعل ما تم استقصاءه من مصنفات هى التى رجع إليها ابن حزم فقط . إذ الواقع يؤكد لنا أن ابن حزم اطلع على أكثر ما دخل الأندلس من كتب تاريخية كتبها المشارقة ، وعلى ما كتبه الأندلسيون أنفسهم، وذلك كله يصور مدى ما حصله في التاريخ الإسلامي بخاصة، فأما تواريخ الأمم الأخرى فيبدو أنه وقف فيها عند مصادر معينة، مثل التوراة والإنجيل وتاريخ يوسيفوس، والأرجح أنه قرأ تاريخ هوروشيوس الذي نقل عن اللاتينية في أيام عبد الرحمن الناصر كما كان واقفا على التاريخ المعاصر راصدا له أو مشاركا في صنعه [2] .

ثانيا : لقاء الشيوخ : درس ابن حزم التاريخ لأول مرة على يد شيخه أحمد بن الجسور ، وكان لايزال فى الخامسة عشر من عمره . ثم تتابعت دراساته واهتماماته **بهذا العلم فأخذه عن مجموعة من الشيوخ بعد ابن الجسور منهم :**

1- عبدالرحمن بن محمد بن أبى زيد العتكى .

1 أنظر : ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضارى ، ص153-157.
2 عبدالباقى السيد عبدالهادى : ابن حزم الظاهرى ، ص100 ، 101 ،311-331.

2- عبدالله بن يوسف بن الفرضى ، الذى درس عليه كتبه التاريخية خاصة تاريخ علماء الأندلس ، وروى من خلاله بعض الروايات والأخبار النادرة على ما سيتضح بعد قليل .

3- أبو الوليد يونس بن عبدالله المعروف بابن الصفار ، والذى استفاد منه ابن حزم كثيراً من أخبار التاريخ ، ونقل ابن حزم عنه بعض المرويات التى لم يعاصرها ومن ذلك ما ذكره ابن حزم بخصوص غزو الحكم المستنصر للروم سنة 352هـ حيث قال : حدثني أبو الوليد يونس بن عبد الله القاضي قال: لما أراد الحكم المستنصر غزو الروم سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، تقدم إلى والدي ليكون في صحبته، فاعتذر بضعف في جسمه، فقال المستنصر لأحمد بن نصر: قل له إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيته من الغزاة. فخرج أحمد بن نصر إليه بذلك فقال: أنا أفعل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله. قال، فقال المستنصر: إن شاء أن يكون تأليفه له في منزله فذلك إليه، وإن شاء في دار الملك قال المطلة على النهر فذلك له. قال: فسأل أبي أن يكون ذلك في دار الملك وقال: أنا رجل مورود في منزلي، وانفرادي في دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل شغل، فأُجيب إلى ذلك. وكمل الكتاب في مجلد صالح، وخرج به أحمد بن نصر إلى الحكم المستنصر فلقيه بالمجلد بطليطلة فسر الحكم به [1].

4- أبو عبدالله محمد بن عمرو بن مضاء .

5- أبو المحيا ملهم بن موازن[2].

ثالثا : محاورة الأقران ومجادلة أصحاب النزعات والأفكار المخالفة لما كان عليه ابن حزم ، لعبت دورا مهما فى تشكيل فكر ابن حزم التاريخى ، وكانت أحد مصادره فى التدوين ، ومن هؤلاء مجموعة كانت تقول بخلود النفس والزمان

(1) نقلا عن الحميدى : جذوة المقتبس ، ص221 ترجمة 533.

(2) عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص82،83.

كعبدالله بن خلف بن مروان الأنصارى ، وعبدالله بن محمد السلمى الكاتب ، ومحمد بن على بن أبى الحسين الطيب [1] ، ومنهم ابن النغريلة اليهودى الذى دفع ابن حزم للوقوف على تاريخ اليهود والتنقيب فى التوراة [2] ، وكذا كان لقاؤه بأحد المرجئة وهو محمد بن عيسى الألبيرى الصوفى المعتزلى سببا فى الوقوف على حقائق بشأن المعتزلة ، والصوفية [3].

---

1 ابن حزم : الفصل ، 3/1.

2 ابن حزم : الفصل ، 120/5.

3 عبدالباقى السيد : ابن حزم ، ص312،311. وابن النغريلة هو شموئيل اللاوي بن يوسف الناجيد وعرف بالعربية باسم إسماعيل بن النغريلة ، عالم تلمودي ونحوي ولغوي وعسكري وسياسي وراعي للفنون والعلوم وشاعر يهودي أندلسي. كان كبير وزراء طائفة غرناطة ومن قادة جيوشها. ويعتبر صاحب أكبر مكتبة شخصية في الأندلس . ولد في ماردة سنة 993م ، وكان يدعي أنه ينتسب للنبي داود .تلقى تعليمه في مدينة قرطبة، حيث درس الشريعة اليهودية على يدي" حنوخ بن موسى والعبرية على يد النحوي يحيى بن حيوج الفاسي، وأصبح عالما تلموديا يجيد اللغتين العبرية والعربية. كما تمكن وبرع في الأدب العبري والعربي، وأصبح قادراً على نظم الشعر باللغتين، كما اهتم بعلم الفلك والهندسة والمنطق، وقرأ القرآن وعدداً من كتب الفقه الإسلامي، وبعض دراسات النصارى عن الإنجيل . بدأ حياته المهنية كتاجر في قرطبة .وبعد اندلاع فتنة الأندلس سنة 1009م طال مدينة قرطبة التخريب بعد حصار سنة 1013م، خلال الصراع الذي جرى بين محمد المهدي بالله وسليمان المستعين بالله .فترك ابن نغريلة قرطبة وتوجه لمالقة وفتح حانوت للتوابل. تزوج ابنة العالم التلمودي الكبير نسيم بن يعقوب المقيم في القيروان. التحق ببلاط طائفة غرناطة من بني زيري، حيث عَمل بجمع الضرائب، ثم عيّن كاتباً ومساعداً عند الوزير أبي العباس. وفي عام 410 هـ / 1020م أصبح ابن النغريلة من وزراء حبوس بن ماكسن .كما عُين رئيس أركان الجيش ، وقاد عدة معارك ومناوشات ضد مملكة بنو عباد الإشبيلية. وفي عام 1027 أطلق عليه الكنية العبرية نجّيد بالمعنى رئيس يهود الأندلس. بعد وفاة الملك حبوس عام 1037م خلفه ابنه باديس بن حبوس ، بدلاً من ابنه الآخر بلّغين، وتم ذلك بمساعدة ابن النرغيلة. فكافأه الملك الجديد وقرَّبه منه وعيَّنه وزيراً له وأصبح من أهم الشخصيات في المملكة، بل المسير الفعلي لشؤون الدولة.، وكان قد ألف عدة قصائد وجمعها في ديوان مكون من ثلاثة كتبٍ ، وأطلق عليها أسماء ابن المزامير، ابن الأمثال، وابن سفر الجامعة. تناولت قصائده الحب والحرب والصداقة والحكمة والأخلاق والرثاء=

رابعا : الروايات الشفوية : وقد كان لوالده أقوى الأثر في توجيهه نحو التاريخ، بحكم شخصه ومكانته: فهو مصدر هام لكثير مما نقله من روايات لم تكن تقف عند ظاهر الخبر، بل تفعل في نفسه فعلها، وإلى مثل ذلك يشير بقوله: " حدثني وهزني الوزير والدي نضر الله وجهه " (1) ، ولعل والده هو الذي نبه ذهنه إلى التقاط الغرائب والنوادر، لكثرة ما كان يقص عليه منها، ولمكانته في الدولة كان عارفا بما يجري حوله من دقائق الأمور، كما أن تلك المكانة جعلت مجلسه حافلا بشخصيات العصر، وفي ذلك المجلس استمع الابن إلى الأحاديث الدائرة والروايات المختلفة، مثلما استمع إلى الشعراء وهم ينشدون المدائح في أبيه; وحين قضت الفتنة البربرية على ابن حزم بمفارقة قرطبة والتجوال في المدن الأندلسية، وسعت لديه مجال المشاهدة، مثلما كثرت من مصادره الشفوية ، ولذا نراه يؤكد

=والصلاة لله مثل قصائد البيوط والأدعية. وقد ذكر موسى بن عزرا بأنه استفاد منها كثيرا. أعيد نشرها أول مرة سنة 1934م في أكسفورد وقلَّد ابن اللنغريلة أمراء عصره من المسلمين، باجتذاب الشعراء وكوَّن لنفسه حاشية من الشعراء اليهود والمسلمين. وفي النحو كتب عدة مؤلفات أبرزها كتاب الكنز ، وحرَّر معجماً لعبرية التوراة. كما ألف كتاباً عن الشريعة اليهودية بعنوان آرامي سفر هِلكِثا ربربثا أو كتاب الشريعة الكبيرة اقتبسه من التلمود الأورشليمي والتلمود البابلي ومن الكتاب القديم الذي ألفه الحاخام أحاي رئيس مدرسة فم بديثا العراقية في القرن الثامن الميلادي، واستعمل ابن نغريلة في تأليفه اللغة العربية وبالحروف العبرية أما الشواهد فقد كانت بالآرامية والعبرية، ونُشر الكتاب في الأندلس عام 1049م، وقد ذكر سليمان بن جبيرول بأن ابن نغريلة استطاع بهذا الكتاب نقل مركزَ الديانة اليهودية من بغداد إلى الأندلس. كما ألف عدة كتابات جدلية طاعناً في صدق القرآن ، فرد عليه ابن حزم في كتاب سماه الرد على ابن نغريلة اليهودي ، ومع هذا كان ابن النغريلة مندمجاً تماماً في الحضارة العربية الإسلامية ، وكانت وفاته عام 1056. أنظر : ابن حزم : رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى ضمن رسائل ابن حزم بالجزء الثالث ; ابن سعيد : المغرب ، 114/2 ; ابن عذارى : البيان المغرب ، 265،264/3 ; ابن الخطيب : الإحاطة ، 131/1 ; عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص311-316.

1 أنظر : نقط العروس، الفقرة: 76.

تأثير المشافهة عليه فى التدوين التاريخى بقوله فى غير ما موضع من مصنفاته : " بلغنا ، وأخبرنا ، وحدثنى ثقة من إخوانى ، وحكاية لم أزل أسمعها [1] ; ومن ذلك قوله : " وقد أخبرني بعض أصدقائنا وهو محمد بن عبد الرحمن بن عقبة رحمه الله تعالى أنه عارض بهذا البرهان بعض الملحدين وهو عبد الله بن عبد الله بن شنيف فعارضه الملحد في قوله بخلود الجنة والنار وأهلها " [2] ، وقوله عن قصة حدثه إياها شيخه ابن الفرضى : " وهاهنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها، وهي: أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي حدثني أن أبا الجيش مجاهداً صاحب الجزائر ودانية وجَّه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها، ألف دينار أندلسية، على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور " مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد " فرد الدنانير وأبى من ذلك ولم يفتح في هذا باباً البتة وقال: والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت، ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة، بل لكل طالب عامة فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها[3] ; وقوله عن أندلسى صاحب عقل ودين حدثه عن مصنفات فى العدد والهندسة فقال : " إلا أني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول: إنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح ، وهما من أهل بلدنا. وكذلك كتاب لأحمد بن نصر في المساحة المجهولة فما تقدم إلى مثله في معناه " [4].

ومن هذا القبيل خبر تناولته جل المصادر التى ترجمت لأحمد بن سعيد بن حزم والد صاحبنا ابن حزم الظاهرى ، ومصدره الرئيس ابن حزم الذى نقله عن ابن

1 أنظر : الفصل ، 215/1 ; طوق الحمامة ، ص26 ، 159 ; جمهرة أنساب العرب ، ص33.
2 أنظر : الفصل ، 31/1.
3 أنظر : رسالة فى فضل الأندلس ، ص182.
4 نفسه ، ص186،185.

البشتنى عن والد ابن حزم الوزير ، وعنه يقول ابن حزم : أخبرني هشام بن محمد بن هشام بن محمد بن عثمان المعروف بابن البشتنى من آل الوزير أبي الحسن جعفر ابن عثمان المصحفى عن الوزير أبي رحمة الله عليه ، أنه كان بين يدي المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر في بعض مجالسه للعامة، فرفعت له رقعة استعطاف لأم رجل مسجون كان ابن أبي عامر حنقاً عليه لجرم استعظمه منه، فلما قرأها اشتد غضبه وقال: ذكرتنى والله به ! وأخذ القلم يوقع، وأراد أن يكتب: يصلب فكتب: يطلق ورمى الكتاب إلى الوزير، قال: فأخذ أبوك القلم وتناول رقعةً وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة، فقال له ابن أبي عامر: ما هذا الذي تكتب ؟ قال: بإطلاق فلان إلى صاحب الشرطة; قال: فحرد وقال: من أمرك بهذا ؟ فناوله التوقيع، فلما رآه قال: وهمت ! والله ليصلبن ! ثم خط على ما كتب; وأراد أن يكتب يصلب فكتب يطلق قال: وأخذ والدك الرقعة فلما رأى التوقيع تمادى على ما بدأ به من الأمر بإطلاقه، ونظر إليه المنصور متمادياً على الكتابة، فقال: ما تكتب ؟ قال: بإطلاق الرجل، فغضب غضباً شديداً أشد من الأول، وقال: من أمرك بهذا ؟ فناوله الرقعة، فرأى خطه، فخط على ما كتب، وأراد أن يكتب يصلب فكتب يطلق فأخذ والدك الكتاب فنظر ما وقع به، ثم تمادى على ما كان بدأ به، فقال له: ماذا تكتب ؟ قال: بإطلاق الرجل، وهذا الخط ثالثاً، فلما رآه عجب وقال: نعم يطلق على رغمي، فمن أراد الله إطلاقه لا أقدر أنا على منعه! (1).

خامسا : الرؤية والمشاهدة : كانت للمشاهدة ومعايشة الأحداث ورؤية الناس أثر كبير على ابن حزم فى تدوينه للتاريخ ، ومن ثم نراه يؤكد ذلك بقوله : "وقد شاهدنا الناس وبلغتنا أخبار أهل البلاد البعيدة وكثر بحثنا عما غاب عنا منها ووصلت إلينا التواريخ الكثيرة المجموعة في أخبار من سلف من غرب وعجم في كثير من الأمم(2).

---

(1) نقلا عن الحميدى : جذوة المقتبس ، ص112، 113 ، ترجمة 215.

(2) أنظر :الفصل ، 175/1.

بل وجدنا ابن حزم يكذب خبر صلب المسيح عند النصارى – لعدم توفر شرط المشاهدة – بقوله : إن صلب المسيح عليه السلام لم يقله قط كافة ولا صح بالخبر قط لأن الكافة التي يلزم قبول نقلها هي إما الجماعة التي يوقن أنها لم تتواطأ لتنابذ طرقهم وعدم التقائهم وامتناع اتفاق خواطرهم على الخبر الذي نقلوه عن مشاهدة أو رجع إلى مشاهدة ولو كانوا اثنين فصاعداً وإما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق في الطبيعة على التمادي على سنن ما تواطؤا عليه فأخبروا بخبر شاهدوه ولم يختلفوا فيه فما نقله أحد هاتين الصفتين عن مثل إحداهما وهكذا حتى يبلغ إلى مشاهدة فهذه صفة الكافة التي يلزم قبول نقلها ويضطر خبرها سامعها إلى تصديقه وسواء كانوا عدولاً أو فساقاً أو كفاراً ولا يقطع على صحته إلا ببرهان فلما صح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام فوجدناه كواف عظيمةً صادقة بلا شك في نقلها جيلاً بعد جيل إلى الذين ادعوا مشاهدة صلبه فإن هنالك تبدلت الصفة ورجعت إلى شرط مأمورين مجتمعين مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل والنصارى مقرون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهاراً خوف العامة وإنما أخذوه ليلاً عند افتراق الناس عن الفصح وأنه لم يبق في الخشبة إلا ست ساعات من النهار وأ ه أنزل إثر ذلك وأنه لم يصلب إلا في مكان نازح عن المدينة في بستان فخار متملك للفخار ليس موضعاً معروفاً بصلب من يصلب ولا موقوفاً لذلك وأنه بعد هذا كله رسي الشرط على أن يقولوا أن أصحابه سرقوه ففعلوا ذلك وأن مريم المجدلانية وهي امرأة من العامة لم تقدم على حضور موضع صلبه بل كانت واقفة على بعد تنظر هذا كله في نص الإنجيل عندهم فبطل أن يكون صلبه منقولاً بكافة بل بخبر يشهد ظاهره على أنه مكتوم متواطأ عليه وما كان الحواريون ليلتئذ بنص الإنجيل إلا خائفين على أنفسهم غيباً عن ذلك المشهد هاربين بأرواحهم مستترين وإن شمعون الصفا غرر ودخل دار قيقان الاهن أيضاً بضوء النهار فقال له أنت من أصحابه فانتفى وجحد وخرج هارباً عن الدار

فبطل أن ينقل خبر صلبه أحد تطيب النفس عليه على أن نظن به الصدق فكيف أن ينقله كافةٌ [1] .

ويعمد ابن حزم إلى استخدام بعض نصوص القرآن فضلا عن حوادث المشاهدة التى وقعت له فى اثبات بطلان بعض الاخبار ومنها خبر صلب المسيح الآنف الذكر فيقول: " وهذا معنى قوله تعالى " **ولكن شبه لهم** " إنما عنى تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطؤا عليه هم شبهوا على من قلدهم فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه وهم كاذبون في ذلك عالمون أنهم كذبة ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذي حاسة سليمة لبطلت النبوات كلها إذ لعلها شبهت على الحواس السليمة ولو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها ولأمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس وفيمن يجالس وفي حيث هو فعله نائم أو مشبه على حواسه وفي هذا خروج إلى السخف وقول السوفسطائية والحماقة وقد شاهدنا نحن مثل ذلك وذلك أننا اندرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر فرأيت أنا وغيري نعشاً فيه شخص مكفن وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة في بيت وخارج البيت أبي رحمه الله وجماعة عظماء البلد ثم صلينا في ألوف من الناس عليه ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حياً وبويع بعد ذلك بالخلافة ودخلت عليه أنا وغيري وجلست بين يديه ورأيته وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام ... وأما التشبيه على الواحد والاثنين ونحو ذلك فإنه جائز وكذلك فقد العقل والسخافة يجوز ذلك على الواحد والاثنين ونحو ذلك ولا يجوز على الجماعة كلها. [2].

1 ابن حزم : الفصل ، 1/ 74،75.
2 أنظر : الفصل ، 1/ 75.

وقوله تعالى " وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم " إنما هو إخبار عن الذين يقولون تقليداً لأسلافهم من النصارى واليهود أنه عليه السلام قتل وصلب فهؤلاء شبه لهم القول أي أدخلوا في شبهة منه وكان المشبهون لهم شيوخ السوء في ذلك الوقت وشرطهم المدعون أنهم قتلوه وصلبوه وهم يعلمون أنه لم يكن ذلك وإنما أخذوا من أمكنهم فقتلوه وصلبوه في استتار ومنع من حضور الناس ثم أنزلوه ودفنوه تمويهاً على العامة التي شبه الخبر لها [1].

وهكذا فإن الحقيقة التاريخية عند ابن حزم لا تكون حكرا على مجتمع دون آخر, ولَا على طائفة أو ديانة دون غيرها, بل إنها إذا استوفت في نقلها شروط الصّحة أمْكن الإعتماد عليها. لأن الكافّة التي يلزم قبول نقلها, هي إما الجماعة التي يوقَنُ أنها لم تتواطأ لتنابُذِ طرقهم وعدم التقائهم وامتناعُ اتّفاقِ خواطرهم على الخبر الذي نقلوه عن مشاهدة, أو رجع إلى مشاهدة ولو كانوا اثنين فصاعدا ... فما نقله أحد أهل هاتين الصِّفتين عن مثل إحداهما, وهكذا حتى يبلغ إلى مشاهدة. فهذه صفة الكافة التي يلزم قبول نقلها ويضطر خبرها سامعها إلى تصديقه ... [2] وحدّ الكافة أو الإجماع عنده اثنان فما فوق بشرط عدم تواطئهما على الكذب.[3] .

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم كان حريصا فى توصيفه لأوضاع المجتمع وأحواله على المشاهدة والمعاينة ، ومن ثم رأيناه حال توصيفه لبعض الطوائف التى انشغلت ببعض العلوم فى الأندلس لا يعول على غيره بل أثبت مشاهدته لأحوالهم ومعاينته لتصرفاتهم وتدبره لأمرهم حيث قال : إنا لما تدبرنا أمر طائفتين ممن شاهدنا في زماننا هذا وجدناهما قد تفاقم الداء بهما . . فأما إحداهما فقد حلت المصيبة فيها وبها ، وهم

1 أنظر : الفصل ، 1/76،75.
2 ابن حزم : الفصل ، 1/75.
3 ابن حزم : الإحكام فى أصول الأحكام ، 1/120

قوم افتتحوا عنوان أفهامهم وابتدأ دخولهم إلى المعارف بتعلم علم العدد وبرهانه وتخطيه إلى تعديد الكواكب وهيئة الأفلاك ، وكيفية قطع الشمس والقمر انتقالها من الأجرام العلوية وإعظامها وأبعادها والطبيعة وعوارض الجو ومطالعة شئ من كتب الأوائل وحدودها . فلم تلق هذه الطائفة المذكورة من حملة الدين إلا قوما لا عناية لهم بشئ وإنما عنيت من الشريعة بأحد ثلاثة أشياء :

إما بألفاظ ينقلون ظاهرها ولا يعرفون معانيها ولا يهتمون بتفهمها . . وإما بمسائل من الأحكام لا يشتغلون بدلائلها ومبعثها وإنما حسبهم منها ما أقاموا به جاههم وحالهم . . وإما انحرافات منقولة عن كل ضعيف وكذاب وساقط لم يهتبلوا قط بمعرفة صحيح منها من سقيم ولا مرسل من سند ولا ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما الطائفة الثانية فهم قوم ابتدءوا الطلب لحديث النبي (ص) فلم يزيدوا على طلب علوم السند والغرائب دون أن يهتموا بشئ مما كتبوا ولا يعلمون به وإنما يحملونه حملا لا يزيدون على قراءته دون تدبير معانيه ودون أن يعلموا أنهم المخاطبون به وأنه لم يأت مهملا ولا قاله (ص (عبثا ، بل أمرنا بالتفقه فيه والعمل به ، وأكثر هذه الطائفة لا عمل عندهم إلا بما جاء عن طريق مقاتل بن سليمان والضحاك بن مزاحم وكتاب البزدوى التي إنما هي خرافات موضوعة وأكاذيب مستعملة ولدها الزنادقة تدليسا على الإسلام وأهله [1].

سادسا : العلوم البينية كالفقه والحديث والجغرافيا وخلافه : لم تتوقف مصادر ابن حزم التاريخية على المصادر التقليدية ، وذلك لطبيعته الموسوعية وإحاطته كنها بالعديد

1أنظر : الفصل ، 1/345-347.

من العلوم العقلية والنقلية ، ومن ثم رأيناه يوظف هذه العلوم المتباينة فى تدوينه للتاريخ.

فقد تأثر بطريقة أهل الحديث فى التدوين التاريخى ونقد الخبر والرواية . فقد كانت طريقة أهل الحديث تعتمد على نقد السند أي على التعديل والتجريح للرواة ، ونظرا لأهمية الخبر بالنسبة للمذهب الظاهري، وكونه الدعامة الثاني – بعد القرآن – في ذلك المذهب; الأمر الذى يستدعي معرفة شاملة دقيقة لعلم الرجال، مثلما يفترض الحذر الشديد في تقبل الخبر، وفي هذه الناحية وضع ابن حزم بين المتعنتين في التوثيق، وانتقده بعضهم لارتكابه عدة أخطاء في حق رواة مشهورين وصفهم بأنهم مجهولون مثل الترمذي والبغوي وإسماعيل بن محمد الصفار وأبي العباس الأصم (1).

وايا ما كان القول فى ابن حزم بشأن نقده للرواة فهو في كثير من علمه في الرجال يعتمد على من سبقوه ، فإذا اختار تجريح أحدهم فمعنى ذلك أنه – في أغلب الأحيان – اتبع في الحكم عليه أحد السابقين، ولذلك فليس حجة على ابن حزم أن يقال: فلان وثقه ابن معين أو عده ابن حبان في الثقات. فهذا محمد بن سليمان المشمولي المخزومي ذكره ابن حبان في الثقات، كما ذكره العقيلي والساجي والدولابي وابن الجارود في الضعفاء، فليس أحد الموقفين بملزم لابن حزم، وإنما هو يحكم رأيه فيما يراه مناسبا، ولهذا يقول فيه: منكر الحديث (2).

الجدير بالذكر أن ما يهمنا هنا هو المنهج الذي أمده به علم الحديث، وهو منهج يتحرى الدقة ويتشدد في محاكمة السند، وربما لم يحتج ابن حزم إلى كل ذلك في موقفه من الروايات التاريخية، ولكن روح المنهج الحديثي تلبست به ووجهت فكره.

1 السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ، ص168.
2 ابن حجر : لسان الميزان ، 186/5.

وإلى جانب المنهج الحديثى وتأثير علوم الحديث على ابن حزم فقد تفتح فكره على الدراسات الفلسفية والمنطقية، فهذه الدراسات هي التي مهدت لديه تحكيم العقل في الرواية نفسها لا في رواتها، ورفضها على أساس عقلي، كما وسعت لديه الآفاق التي يستطيع أن يرودها بفكره، بحيث يتجاوز موقفه الظاهري الذي يحرص عليه في باب التشريع; وقد لحظ بعض الأقدمين هذه الازدواجية لديه فقال ابن كثير: " والعجب كل العجب منه أنه كان ظاهريا حائرا في الفروع لا يقول بشيء من القياس لا الجلي ولا غيره، .... وكان مع هذا من أشد الناس تأويلا في باب الأصول وآيات الصفات وأحاديث الصفات لأنه كان أولا قد تضلع من علم المنطق... " (1) .

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم درس الفلسفة والمنطق على يد محمد بن الحسن الكنانى ، الذى ترجع معرفته به لمجلس المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر ، إذ إن والد ابن حزم كان وزيرا لكل منهما فى الوقت الذى كان محمد بن الحسن الكنانى طبيبا لهما ، وقد تاثر ابن حزم به فى الفلسفة والمنطق وأثنى على براعته ومصنفاته فيهما ، كما درس الفلسفة والمنطق على يد ثابت بن محمد الجرجانى العدوى المكنى بأبى الفتوح ووصفه بقوله : " ما رأيت فى خلق الله عز وجل أعلم بهذا العلم منه ولا أحفظ له منه ولا أوسع فيه منه " (2).

وقد كان لإحاطة ابن حزم بالجغرافيا والاقتصاد أثر مهم عليه حال التدوين التاريخى إذ جعلهما قاعدة لفهم التاريخ ومناقشة الروايات التاريخية : فهو حين يناقش ما ذكر عن أعداد بني إسرائيل في زمن داود (نصف مليون مقاتل من سبط يهوذا ومليون من تسعة أسباط أخرى وبقي سبطان لم يحص عددهما. هذا عدا الأطفال

1 أنظر : البداية والهاية ، 92/12.

(2) نقلا عن إحسان عباس ، رسائل ابن حزم ، 39/4 ; وانظر : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، 261/11 ; عبدالباقى السيد : ابن حزم ، ص85 .

والنساء والشيوخ وسائر من لا يقدر على القتال) يقول: " البلد المذكور باق لم ينقص، ولا صغرت أرضه، وحده بإقرارهم في الجنوب: غزة وعسقلان ورفح وطرف من جبال الشراة بلد عيسو... وحد ذلك البلد في الغرب البحر الشامي، وحده في الشمال صور وصيدا وأعمال دمشق التي لا يختلفون في أنهم لم يملكوا منها مضرب وتد... وحد البلد المذكور في الشرق بلاد موآب وعمون وقطعة من صحراء العرب التي هي الفلوات والرمال.... " [1] هذا التصور للجغرافيا يؤدي إلى القول بأن تلك البلاد المذكورة لا يمكن أن تتسع لتلك الملايين، فإذا أضفت إلى ذلك ما جاء في سفر يوشع من أن المدائن التي سكنها عدد من الأسباط لا كلهم بلغت في الإحصاء الكلي أربعمائة مدينة سوى القرى التي لا يحصيها إلا الله عز وجل وجدت ابن حزم يقول: " فاعجبوا لهذه الشهرة أن تكون البقعة التي قد ذكرنا مساحتها على قلتها وتفاهتها تكون فيها هذه المدن " [2]

وتشترك العوامل الجغرافية والاقتصادية اشتراكا يكاد يكون متلازما، فإذا قرأ ابن حزم في التوراة أن بني إسرائيل كانوا ساكنين في أرض قوس فقط وأن معاشهم كان من المواشي فقط وأن عددهم هنالك كان ستمائة ألف وثلاثة آلاف (سوى النساء والأطفال) احتكم إلى العاملين الجغرافي والاقتصادي فقال: مالذي يكفي هذا العدد إذا لم يكن لهم من مصدر للقوت والكسوة سوى المواشي " ثم اعلموا يقينا أن أرض مصر كلها تضيق عن مسرح هذا المقدار من المواشي فكيف أرض قوس وحدها " [3] . وإذا وقع في بعض الروايات على أن جباية سليمان كانت 636000 قنطار من ذهب رغم
صغر المساحة التي تقع تحت حكمه قال: " فهذه الجباية التي لو جمع كل الذهب الذي

1 أنظر : الفصل 1/ 166.
2 أنظر : الفصل ، 1/168.
3 أنظر : الفصل ، 1/177.

بأيدي الناس لم يبلغها. من أين خرجت " [1] وإذا قرأ أن ملك السودان غزا بيت المقدس بمليون مقاتل: لم يكتف بالتكاء على عاملي الجغرافيا والاقتصاد بل أضاف إليهما عامل العلاقات السياسية فرفض الخبر (أ) لبعد المسافة وكون أكثرها مفاوز لا تتحمل جيشا بذلك العدد (ب) ولا بد أن يمر هذا الجيش على مصر فكيف يستطيع ذلك " هذا ممتنع في رتبة الجيوش وسيرة الممالك " . (ج) ومن المستبعد أن يكون ملك السودان قد سمع بشيء اسمه بيت المقدس [2].

والمطالع لأقواله عن المساحات بين المدن ومنابع الانهار عند نقده للتوراة بكتابه (الفصل) يري قوة حسه الجغرافي الذي ينم عن مطالعات كثيرة ، بالرغم من أن كتبه التي بين أيدينا لم تفصح سوى عن بضعة كتب في هذا الشان وهي (مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها لأحمد ابن محمد الرازي ، ومسالك أفريقيا وممالكها لمحمد ابن يوسف الوراق ، وجغرافيا لبطليموس) [3].

سابعا : الرحلات : لما سقطت الخلافة بقرطبة سنة 422هـ أخذ ابن حزم في التنقل من مدينة إلى مدينة أخرى، فقد خرج من قرطبة إلى المرية حيث مملكة خيران العامري فظل بِها زمناً وعاش هناك في هدوء، مشتغلاً بالعلم والتأليف، واختير ابن حزم نفسه وزيراً، ولكنه لم تطل وزارته، فقد دُبرت ضده مكيدة دخل على أثرها السجن، ولكن خيران أطلقه وأمره بالخروج من المرية فسار إلى بلنسية.

لقد عاش ابن حزم عصراً فياضاً بالاضطرابات والأحداث المثيرة، وشهد الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته، ومن تصرفات أمراء الطوائف، وهزت الأحداث

1 الفصل ، 1/ 219.

2 الفصل ، 1/ 220.

(3) انظر : رسالة في فضل الاندلس ، رسائل ، 172/2 ،173 ، 175 ; الفصل ، 143/1 ; عبدالباقى السيد : ابن حزم ، ص102.

مشاعره إلى الأعماق، ومن ثم كانت أقواله وأحاكمه الصادقة التي أصدرها في حق الطوائف.

لم يستقر ابن حزم في عصر ملوك الطوائف في مملكة من ممالكهم، بل كانت حياته وما التزمه من مذهب فقهي معارض للمذهب المالكي تضطره إلى التنقل والترحال بسبب ما جبل عليه من معارضة للتقليد المذهبي لفقهاء الأندلس.

وتجدر الإشارة بداية إلى أن رحلات ابن حزم وتنقلاته كانت كلها بين مدن الأندلس ولم يغادرها إلى سواها [1].

وهكذا فقد لعبت الرحلات دورا مهما فى تشكيل فكر ابن حزم التاريخى إذ كان يقف على حقائق تاريخية حال توصيفه لمن يترجم له من الحكام أو أهل العلم أو المدينة التى يكتب عنها . فقد تعرف على أصول المعتزلة ومبادئها فى كل من المرية وبجاية ، وصنف طوق الحمامة بشاطبة والذى ترك أثرا واضحا فى التاريخ الإنسانى بصفة عامة وتاريخ الأندلس خاصة ، وكتب رسالته فى فضل الأندلس بقلعة البونت ، والتى تعتبر وصفا للحركة الفكرية بالأندلس فى عصره ، وتشكلت أفكاره فى الملل والنحل ، ومن ثم اتجه لتصنيف كتابه الموسوعى (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) ، والذى بدأه بقرطبة بعد سنة 418هـ/1027م . وكتاب (الأصول والفروع) الذى صنفه سنة 420هـ/1029م [2].

ثامنا : المجتمع الأندلسى كان أحد أهم روافد ابن حزم التاريخية . فقد عاش ابن حزم لحظات " انحدار " التاريخ، في نفسه بما وقع عليه من نكبات ومصادرات عقب

1 عبدالباقى السيد : ابن حزم ، ص88-93.
2 نفسه ، ص92،93.

وفاة أبيه ، وعقب سقوط الدولة الأموية [1] ، ومن ثم وقف ملكاته على التاريخ جاعلا منه وسيلة وغاية، وكان " رد الفعل " لديه على ذلك الانحدار أن توقف عن كتابة التاريخ فى الإطار التقليدى الذى عرف بالتأريخ الحولى أو التأريخ بالسنين ، ولجأ إلى طريقة أخرى مغايرة لما كان عليه ابن حيان وغيره من مؤرخى الأندلس المشاهير، وهذه الطريقة تمثلت فى الاختصار والإيجاز للأحدث مع التركيز على الأحكام التى يحتاج إليها الحكام والرعية .

لقد كان للفتنة البربرية أثر كبير على نفسية ابن حزم وجيل الفتنة جميعا فانضووا يرثون قرطبة وقلوبهم تتمزق ، وكان ابن حزم أكثرهم لأنه غادر قرطبة إلى المرية [2] ، وتركها على حالة مغايرة تماما دفعته إلى أن يلتفت للتاريخ ليقارن حالها قبل التدمير وحالها بعد ما حل بها التخريب ، ومن ثم جاء وصفه قويا ومؤثرا كمؤرخ وصف وصفا بليغا للحالة التى أصبحت عليها قرطبة فقال : " وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية، ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة. فرأيتها قد محت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى; وآكلاماً مشوهة بعد الحسن، وخرائب مفزعة بعد الأمن، ومآوي للذئاب، وملاعب للجان، ومغاني للغيلان، ومكامن للوحوش، ومخابئ للصوص، بعد غنيانها برجال كالسيوف، وفرسان كالليوث، تفيض لديهم النعم الفاشية، وتغص منهم بكثرة القطين الحاشية، وتكنس في مقاصيرهم ظباء الإنس الفاتنة، تحت زبرج من غضارة الدنيا تذكر نعيم الآخرة، حال الدهر عليهم بعد طول النضرة فبدد شملهم حتى صاروا في البلاد أيادي سبا، تنطق عنهم الموعظة، فكان تلك المحاريب المنمقة، والمقاصير المرشقة، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة، يقيد حسنها الأبصار، ويجلي منظرها

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، تحقيق الطاهر مكي ، دار الهلال ، القاهرة ، 1412 هـ /1992 م ، ص 245،246 .

(2) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص247،259 .

الهموم، كان لم تغن بالأمس، ولا حلتها سادة الإنس، قد عبث بها الخراب، وعمها الهذم، فأصبحت أوحش من أفواه السباع فاغرة، تؤذن بفناء الدنيا، وتريك عواقب أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كل ما قد بقي ماثلاً فيها، وتزهدك فيها . وكررت النظر، ورددت البصر، وكدت استطار حزناً عليها، وتذكرت أيام نشأتي فيها، وصبابة لداتي بها; مع كواعب غيد، إلى مثلهن يصبو الحليم; ومثلت لنفسي انطواءهن بالفناء، وكونهن تحت الثرى إثر تقطع جمعنا بالتفرق والجلاء في الآفاق النائية، والنواحي البعيدة، وصدقت نفسي عن فناء تلك النصبة، وانصداع تلك البيضة، بعد ما عهدته من حسنها ونضارتها وزبرجها وغضارتها، ونضوته بفراقها من الحال الحسنة، والمرتبة الرفيعة، التي رفلت في حللها ناشئاً فيها، وأرعيت سمعي صوت الصدى والبوم زاقياً بها، بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها، التي كان ليلها تبعاً لنهارها، في انتشارها بسكانها، والتقاء عمارها، فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدو والاستيحاش، والخفوت والإخفاش. فأبكى ذلك عيني على جمودها، وقرع كبدي على صلابتها، وهاج بلابلي على تكاثرها، وحركني للقول على نبو طبعي...; فقلت: [من الطويل] :

سلام على دار رحلنا وغودرت ...خلاء من الأهلين موحشة قفرا

تراها كان لم تغن بالأمس بلقعاً ...ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا [1].

لم تكن الفتنة البربرية وحدها هى صاحبة التأثير على ابن حزم ليتكىء على التاريخ فى توصيفه . بل تركت حادثة سقوط الخلافة على ابن حزم أثرا سوداويا كما تركت

1 ابن حزم : طوق الحمامة ، تحقيق الطاهر مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، 1977م ، ص126،127.

نفس الأثر على جيل الفتنة جميعا ، ولذا قال ابن حزم في ذهاب الدولة الأموية: " وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بذهابها " (1).

ولعل هذا الملمح الذى ذكره لنا ابن حزم فى توصيفه لحال الأندلس عقب انفراط عقد الخلافة يتضح إذا ناقشنا نتائج وتبعات سقوط الخلافة على كافة المستويات لتتضح الصورة التى رسمها ابن حزم فى كلماته السابقة ، ومن ثم سنجد على الصعيد السياسى . انهيار فى البناء السياسي جملة ، وضاعت الوحدة ، وتفرق أمر الجماعة (2)، حيث اجتمع شيوخ قرطبة والوزراء برئاسة أبي الحزم بن جهور، واتفقوا على خلع المعتد بالله (آخر خلفاء بني أمية)، وإبطال رسم الخلافة جملة (3) ونودي في الأسواق والأرباض أن: لا يبقَ بقرطبة أحد من بني أمية، ولا يكنفهم أحد من أهل المدينة، وانتهى بذلك أمر بني أمية في الأندلس وزالت خلافتهم وانقطعت الدعوة لهم ، وأثرت تلك الواقعة تأثيرًا بالغًا في فكر ابن حيان، وجعلته يتابع مصير دويلات الطوائف، ويرصد العديد من الوقائع، وركز على انفراط وحدة الأندلس وتفرق ملكها إلى دويلات طائفية ، واقتسامهم ألقاب الخلافة (4).

وعلى الصعيد الاقتصادي وبعد انهيار الخلافة ثم سقوطها حدثت الانتكاسة وعم الكساد الاقتصادي (5) وتدهور العمران ، وحفل العصر بالأزمات إلى حدِّ المجاعة

1 نقلا عن ابن عذارى : البيان المغرب 2/ 40.

2 حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1965م ، ص 80

3 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 138.

4 السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص363.

5 Miguel Asin Palacios: «Un códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm. Al-Andalus, 1934, 1, p, vol. 2 (1934) p. 40..

وأفل نجم قُرْطُبَة عمرانياً وبشرياً، وصور ابن حَيَّان الوضع قائلاً: "... وطمست أعلام قصر الزهراء... فطوي بخرابها بساط الدنيا وتغير حسنها; إذ كانت جنة الأرض، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة المسك، وأوهن بنية من بعوضة النمروذ، والله يسلط جنوده على من يشاء، له العزة والجبروت "(1).

وتحولت المدن التجارية المزدهرة إلى قلاع وحصون عسكرية، وهو الأمر الذي لقي تنديد ابن حَيَّان، ويشيع ذلك في صفحات كتابه المتين ومثال ذلك ما أشار إليه في فطنة بالغة عن سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة الوضع المتردي في بمدينة بَطَلْيَوْس نتيجة النزاع بين المعتضِد بن عَبَّاد والأَفْطَس، فقال: " بقيت بَطَلْيَوْس مدةً خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عَبَّاد هذه بفتيان أغمارٍ إلا الشيوخ والكهول الذين أصيبوا يومئذٍ. فاستدللت بذلك على فشو المصيبة " (2) ; ولجأ الملوك من أجل إرضاء نزواتهم وتحقيق لذاتهم إلى إثقال كاهل رعاياهم بالضرائب ; فانعكس ذلك الوضع في كتابات ابن حَيَّان; فوصف ذلك الوضع المتردي في مرارة واضحة بقوله: " فما أقول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها؟ هل هي إلا مشفية على بوارها واستئصالها؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء : أمورٌ لو تدبَّرها حكيم إذن لنهى وهبب ما استطاعا" (3) .

وعلى الصعيد الاجتماعي شهد المجتمع الأندلسي في ظل الخلافة والحِجابة مرحلة المزج والانصهار بين العرقيات المتنوعة ليحدث نوع من التجانس لم تشهده الأندلس

1 نقلا عن : ابن بَسَّام: الذخيرة ،1/ 272.

2ابن بَسَّام: الذخيرة ، 1/ 239; وانظر : أحمد بدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري، دمشق ، 1974م ، ص 242.

3 ابن بسام ، مصدر سابق ، 117/3.

من قبل; إلا أن السخائم العرقية والإقليمية عادت مرة أخرى لتؤثر سلبياً في هذا التجانس، ولتمزق وحدة الأندلس من جديد([1]) بظهور النزعة العنصرية.

وقد كانت هناك طبقة الأُمراء والحكام وذوو الثراء وأصحاب الوظائف الكبرى، وكانوا يمتلكون ثروات طائلة تمثلت في الضياع الواسعة، والقصور الخاصة، وتفننوا في صنوف من البذخ ، كما رصد ابن حَيَّان انحراف الحُجاب والوزراء، واستطاع أن يلقي الضوء حول طبيعة حياة الأمراء من خلال المعايشة، وقد أشار إلى ما أصاب أهل الأندلس من نفاق وقلة وفاء وميل مع من يبقى في المنصب، كما لم يغب عنه أن يصور بعض تجاوزات الولاة وظلمهم، كما صور دور الجواري في بلاط حكام الأندلس، وانتقد ما كُنَّ يقمن به من دسائس. وهذه الرؤية النقدية ما كانت لتحدث لولا ظروف عصره التي دفعته إلى ذكر ما وصل إليه حال الأندلس من انقسام وتفكك([2]).

الجدير بالذكر أن معاصرة ابن حيان المؤرخ الأندلسى الفذ لابن حزم أعطت الأخير النموذج الكبير لمعنى التاريخ، فأقنعه بأنه ما دام قد آثر الشريعة فإنه لا يستطيع أن ينقطع للتاريخ انقطاعا كما فعل ابن حيان . لقد كان ابن حزم غير راض عن ملوك الطوائف قبل أن تحرق كتبه، وإن ألجأته الضرورات إلى العيش في كنف الصالحين منهم كصاحب قلعة البونت أو كأحمد بن رشيق وزير مجاهد في ميورقة ، ومن ثم فهو القائل في مفتتح إحدى رسائله : " اللّٰهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سببا إلى انقراض

1 محمود إسماعيل: الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي ، منشورات الزمن، المغرب ، ط1، 2008م ، ص 70.

2عادل عبد المنعم: النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ، ص 95 ، 79.

أعمارهم وعونا لأعدائهم عليهم عن حياطة ملتهم التي بها عزوا في عاجلتهم وبها يرجون الفوز في آجلتهم... " [1] .

ويقول في موضع آخر من رسائله عندما سئل عن الفتنة التى ضربت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ وتفرق الأمر وتعدد الخلافة فى مدن الأندلس : " وأما ما سألتم عنه من أمر الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض فهذا أمر امتحنا به نسأل الله السلامة ، وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب ، وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى أندلسنا هذه أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد للذى ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى ينقضون على أهلها ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن أمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذم جميعهم ... فإنما هى جزية على رؤس المسلمين يسمونها بالقطيع ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل يرسم على كل رأس وعلى كل خلية شيء ما وقبالات ما تؤدى على كل ما يباع فى الأسواق وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد . هذا كل ما يقبضه المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الأستار ونقض شرائع الإسلام وحل عراه عروة عروة وإحداث دين جديد والتخلي من الله عز وجل ، والله

1 أنظر : الرد على ابن النغريلة ، رسائل ابن حزم ، 3/47.

لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحسرهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه " (1).

ومن كان يحمل هذه النظرة، فإنه لا يرى في اللجوء إلى التاريخ " منقذا " لنفسه ولغيره، بل هو يرى فيه تخليدا لأعمال ظالمة لا يقرها، ولا تضيف شيئا كثيرا إلى العبرة المستمدة من سير الظالمين على مدى العصور، ومن ثم فقد اتخذ ابن حزم من التمذهب بالظاهر حجابا يحول بينه وبين تقديم الفتاوى لهؤلاء المفسدين أو المشاركة في تسويغ أفعالهم; وقد لحظ هو وابن حيان معا ظاهرة التعاون بين بعض الفقهاء والحكام فسمى هو مثل أولئك العلماء فساقا ينتسبون إلى الفقه، ويلبسون جلود ضأن على قلوب سباع، ويزينون لأهل الشر شرهم (2) . وقال ابن حيان يصف وحدة الحال بين الفريقين " :ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين منهم، هم كالملح فيهم، الأمراء والفقهاء، قلما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون، وبفسادهم يردون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين، بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ...والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم، وأولئك

(1) أنظر: رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، رسائل ابن حزم ، 3/173-176.
2 أنظر : رسالة التلخيص ، 3/174.

هم الأقلون فيهم، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها!"[1].

لقد وسع ابن حيان من جنبات التاريخ ليصبح شاهدا لا على عصره وحده، بل على تاريخ الأندلس كله، معتمدا التفصيلات التي لا يكاد يضيع منها شيء ، شاملا بنظره جميع مظاهر الحياة الإنسانية، واقفا في الوقت نفسه موقف الإدانة لعصره - كما فعل ابن حزم - إلا أنها إدانة شمولية موثقة بشواهدها [2] .

وأما ابن حزم فضاق نطاق التاريخ عنده ، ولذلك اكتفى بأن يستخدمه في غايات محددة لا يعدوها: منها الغاية التعليمية التي جعلته يتوفر على تلخيص ما لا بد للدارس من معرفته، فلخص السيرة والفتوح الإسلامية وأسماء الخلفاء في المشرق والمغرب ومدد حكم كل منهم، ولخص أنساب العرب والبربر في موجز جامع; ومنها الاستدلال بالتاريخ على القضايا المتصلة بالأديان وتواريخها، ولهذا لخص تاريخ اليهود - لا من أجل التاريخ نفسه، بل من أجل أن يثبت عدم التزام اليهود بالتوراة في أكثر العهود; ومنها إثارة النظر الإنساني إلى العجائب والنوادر، ولهذا ذهب يجزئ التاريخ في قضايا صغيرة مثيرة، فكتب " نقط العروس " [3].

1 نقلا عن ابن بسام : الذخيرة 1/3: 180 - 181.

2 محمود مكي: تقديمه لمقتبس ابن حيان ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، 1977م ، ص: 87 .

3 إحسان عباس : تقديمه لمجموعة الرسائل التاريخية لابن حزم ، رسائل ، 20/2.

obeikan.com